

عبد الحميد جوده السحار


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مطبوعات مكتبة مصر

همزات الشياطين

تاليف
عبد الحميد جوده السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه



وسوسة الشيطان



١

التف المصلون عقب صلاة المغرب حول عالم من العلماء فى مسجد الحسين ، وجعلوا ينصتون إلى حديثه الذى كان يدور حول ما أعد الله للمنافقين والذين فى قلوبهم مرض فى خشوع ؛ فقد كان الرجل طلق اللسان قوى البيان ، فكانت الكلمات تتدفق من فيه حامية كشواظ من نار ، فتنفذ إلى قلوب الناس فتجعلهم يرتجفون من خشية يوم العرض الأكبر . وراحوا جميعا ينصتون وقد اشرأبت منهم الأعناق ، وكتمت الأنفاس فلا يأخذون من الهواء إلا بقدر كأنما حرم عليهم التنفس العميق ، وبان على وجوههم التأثر الشديد . وكان بينهم شاب فى الثلاثين قمحى اللون وسيم قسيم ، كان أقل المستمعين تأثرا بذلك الحديث ، لا لأن الحديث لا يؤثر فيه ولا لأنه لا يؤمن به ، بل لأنه يعتقد أن الحديث لا يعنيه ، فما هو من المنافقين ولا من الذين فى قلوبهم مرض ، بل هو شاب صالح يعتقد اعتقاد اليقين أنه من أصحاب اليمين الذين سيدخلون الجنة بسلام، فقد صلى صغيرا وصام صغيرا ، فما ارتكب معصية ولا تردى فى هاوية كما يتردى أقرانه كل يوم وليلة ؛ فما شرب خمرا وما عرف النساء أبدا قبل أن يتزوج ، وكان وهو حدث يخرج وأبوه لزيارة المساجد فألف ذلك واعتاده ، فإذا ما فكر فى الخروج من البيت لا يفكر إلا فى الخروج إلى مسجد يزوره ، وإنه ليعرف المسجد الذى سيقصده فى اليوم الذى سيخرج فيه ، فقد خصص معتادو زيارة المساجد يوما لكل مسجد ، فيوم الجمعة لزيارة الإمام الشافعى حيث القراء يقرءون متتابعين من العصر

حتى المغرب ، ويوم الأحد لزيارة السيدة زينب ، وليلة الثلاثاء للحسين حيث الحضرة الكبيرة التى يؤمها وجوه الصالحين ، أما ليلة الأربعاء فلزيارة السيدة فاطمة النبوية ، وليلة الجمعة لزيارة المحمدى حيث يقيم السادة الدمرداشية « المحيا » مرددين أدعيتهم قارئين ما يختارونه من السور .

واستمر العالم فى حديثه واستمر صلاح يتلفت إلى الناس ولسان حاله يقول : « هذا الحديث لكم ولا شأن لى به ، فما أنا من المنافقين ولا من الذين فى قلوبهم مرض » . وارتفع صوت المؤذن يدعو الناس إلى صلاة العشاء فأطرق الناس فى خشوع ، ثم قاموا للصلاة ، ولما قضيت رفعوا أكف الضراعة وراحوا يعلنون توبتهم ويلتمسون من الله الرحمة ، ولكن صلاحا لم يلتمس توبة فمم يتوب وما ارتكب معصية ؟ بل جعل يردد دعاء حفظه : « اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى ، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى فيها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، واجعل الموت راحة لى من كل شر » .

ولم يكن ذلك الدعاء منبعثا من قلبه ، بل كان لسانه يردده دون وعى . وخرج من المسجد فوجد الناس جالسين فى المقاهى الكثيرة المبعثرة فى ذلك الحى فغمغم : « يا للمجرمين ! يسمعون نداء الله ولا يلبون ، تمتعوا قليلا فلن يقودكم شيطانكم إلا إلى جهنم وبئس المصير » .

وعاد صلاح إلى بيته وجلس وزوجه يتناولان طعامهما ، والتفت إليها وقال :

— أبلغك ما حدث لعبد التواب افندى ؟

— لا .. وما حدث له ؟

— طرد من عمله .

ـــ طرد من عمله ؟

ـــ أجل .. قد اختلس مبلغا .

ـــ مسكين .

ـــ أترثين لسارق ؟ ! ما أبلهك !

ـــ إنه يستحق الرثاء .

ـــ إنه يستحق قطع يده .

ـــ له أبناء صغار يستحقون كل عطف .

ـــ لماذا ترك مسارب الشيطان مفتوحة فى نفسه ؟ لماذا طاوعه على أخذ مال غيره ؟ إنه يستحق ما ناله وزيادة .

ـــ قد يكون مظلوما يا صلاح .

ـــ لا .. ثبتت عليه السرقة .

ـــ من يدرى يا صلاح ما دفعه إلى ذلك ، قد يكون معذورا .

ـــ ما من عذر يبرر السرقة .

ـــ للبشر ضعفه ، من يدرى ؟

ـــ لا تقولى هذا أمامى يا سميرة فإنى لا أعترف بضعف الإنسان ، وإنى لأعجب لامرىء لا يستطيع كبح شيطانه .

٢

تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود وارتفع صوت المؤذن يدعو الناس إلى صلاة الفجر ، فهب صلاح من نومه وقام ليتوضأ : ولما انتهى من وضوئه قفل راجعا إلى حجرة نومه ، واتجه إلى سرير زوجه وراح يهزها وهو يناديها :

ـــ سميرة .. سميرة ، انهضى قد أذن الفجر .

فتقلبت الزوجة فى فراشها وسحبت الغطاء عليها واستأنفت نومها ، ولكن زوجها استمر يهزها ويهتف :

ـــ سميرة .. سميرة انهضى .

فقالت فى صوت فيه نعاس :

ـــ دعنى .. أوه ! دعنى أنام .. النوم لذيذ الساعة .

ـــ انهضى .. الصلاة خير من النوم .

فقامت تتمطى ، واتجه صلاح إلى السجادة العجمية الصغيرة التى أعدت للصلاة ووقف مستقبلا القبلة ، وجعل يتمتم :

ـــ اللهم أحسن قيامنا ووقوفنا بين يديك ، نويت أصلى ...

وقبل أن يكبر لمح زوجه قد ارتمت على سريرها وسحبت الغطاء عليها وأغمضت عينيها ، فترك الصلاة وانطلق صوبها وجذب عنها الغطاء وصاح :

ـــ سميرة قومى ، ما هذا الكسل ؟

ـــ والله إن لم تدعنى لأنقضن وضوءك .

ـــ قومى قبل شروق الشمس ودعى الهذر ، فالوقت ليس وقت مزاح .

ـــ دعني قليلا إذا كنت تحبني .

ـــ إني أحبك أكثر مما تحبين نفسك ، إني أود أن أزحزحك عن النار وأنت تتقاحمين فيها .. قومي .

فقامت متثاقلة وسارت تتمطى حتى خرجت من الغرفة ، ووقف صلاح يصلي ، ولما قضيت الصلاة أتكأ على مقعد طويل وجعل يسبح ، وأقبلت زوجه واستقبلت القبلة واندمجت في الصلاة ، فجعل يرقبها مطمئن النفس منشرح الصدر فخورا بنفسه فرحا بما أسداه إلى زوجه ، فقد هداها إلى الصراط المستقيم وسيؤجر على ذلك يوم توفى كل نفس حسابها ، وإنه ليطمع في أن تكون حسناتها في ميزانه فهو صاحب الفضل الأول عليها ولولاه ما جنت حسنات . وتحركت شفتاه بآى الذكر الحكيم فجعل يقرأ الحزب الأخير من سورة الزخرف ، فلما بلغ « هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون » رفع صوته متعمدا ليبلغ مسامع زوجه ، وراح يقرأ وهو يهتز اهتزازا خفيفا : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين . يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون . يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون » . واستمر في القراءة ، ولما انتهى من الحزب راح يفكر في الجنة ونعيمها ، فرأى نفسه يدخلها مطمئنا ، ثم يتلفت فلا يجد سميرة فيسأل عنها خزنة الجنة فيخبرونه أنها ستدخلها إكراما له ، وتوافيه سميرة فرحة فينطلقان إلى النعيم المقيم . واستمر ينعم بأحلامه التي يجترها كل يوم في راحة واطمئنان وسرور ، حتى دخلت زوجه وأخبرته أن الفطور قد أعد فقام ليتناول فطوره قبل أن ينتشر في الأرض ويبتغي من فضل الله .

٣

أغلق صلاح باب مسكنه خلفه ، وقبل أن يهم بالنزول فى الدرج فتح باب المسكن المواجه له وخرجت منه فتاة واسعة العينين ناهدة الصدر نحيلة الخصر ، وما إن تلاقت عيناه بعينيها حتى غض من بصره وتأخر خطوات ليفسح لها الطريق ، فمرت من أمامه وملأت خياشيمه رائحة عبقة أنعشت نفسه ، ولكنه ظل مطاطئ البصر . وهبطت فى الدرج قافزة ، ولم يقدر صلاح على أن يقمع شهوة التطلع طويلا فنظر من بين أهدابه المسبلة فوقع بصره على ثديين يترجرجان صاعدين هابطين ، فأغمض عينيه وتعوذ من الشيطان الرجيم . وخفت وقع أقدامها وتلاشى فوجد نفسه يهبط مسرعا وما كان لينزل إلا متمهلا وقورا متخذا سمة الكهول الموقرين . وسأل نفسه عما دفعه إلى الهبوط السريع ، فرد ذلك إلى جو الربيع الذى أنعشه فدب فيه نشاط حبيب إلى النفس . وبلغ الطريق فلمحها تغذ فى السير وتصعد الطوار خفيفة رشيقة ، وما تقطع فى الطريق خطوات حتى تعود لتقفز إلى الطوار ثانية كأنها خيال يطير لا يبغى المكث على الأرض ولا يطيق اللصوق بها .. ووجد نفسه يغذ فى السير ، ولكن علام الإسراع وما هناك حاجة إلى الإسراع فما زال فى الوقت متسع ؟ وأحس همسا خفيفا يتبعث من داخله يستفسر : « ترى أتغذ فى السير لتلحق بها وتتطلع إليها ؟ » . وما هجس هذا الهاجس فى نفسه حتى تفزع وجفل ، وضيق من خطوه وتعوذ وابتدأ فى قراءة المعوذتين .

وبلغ صلاح محطة الترام فوجدها هناك تنتظر لا تستطيع السكون لحظة ،

فهى تتطلع إلى الناحية التى سيقدم منها الترام فى قلق ، ثم تنظر إلى الساعة التى فى معصمها ، ثم تلتفت أمامها وخلفها ويمنة ويسرة ، ثم تأخذ فى قطع إفريز الترام هابطة صاعدة فى تبرم . وكانت حركاتها سريعة ، وكان جسمها يموج موجا كأنما قد سرى فيه تيار كهربى . واقتربت منه وهو واقف فى مكانه والتقت عيناها بعينيه فأطرق ، وأولته ظهرها وابتدأت فى قطع الإفريز هابطة فتبعها بنظره فوجدها فاتنة القوام ، فعلى الرغم من أنها ممتلئة قليلا إلا أن جسمها مفصل تفصيلا ، وكان يزينها شعر سبط طويل أسود كليل اختفت منه النجوم . وساءه أن يتبعها بنظره فأسبل جفنيه واستدار ينظر إلى الناحية الأخرى وجعل يقرأ بعض السور القصار ، وأقبل الترام فقفزت إليه خفيفة رشيقة كعادتها ، وصعد هو فى تؤدة وشفتاه فى حركة سريعة دائمة .

٣

أغلق صلاح باب مسكنه خلفه ، وقبل أن يهم بالنزول فى الدرج فتح باب المسكن المواجه له وخرجت منه فتاة واسعة العينين ناهدة الصدر نحيلة الخصر ، وما إن تلاقت عيناه بعينيها حتى غض من بصره وتأخر خطوات ليفسح لها الطريق ، فمرت من أمامه وملأت خياشيمه رائحة عبقة أنعشت نفسه ، ولكنه ظل مطاطئ البصر . وهبطت فى الدرج قافزة ، ولم يقدر صلاح على أن يقمع شهوة التطلع طويلا فنظر من بين أهدابه المسبلة فوقع بصره على ثديين يترجرجان صاعدين هابطين ، فأغمض عينيه وتعوذ من الشيطان الرجيم . وخفت وقع أقدامها وتلاشى فوجد نفسه يهبط مسرعا وما كان لينزل إلا متمهلا وقورا متخذا سمة الكهول الموقرين . وسأل نفسه عما دفعه إلى الهبوط السريع ، فرد ذلك إلى جو الربيع الذى أنعشه فدب فيه نشاط حبيب إلى النفس . وبلغ الطريق فلمحها تغذ فى السير وتصعد الطوار خفيفة رشيقة ، وما تقطع فى الطريق خطوات حتى تعود لتقفز إلى الطوار ثانية كأنها خيال يطير لا يبغى المكث على الأرض ولا يطيق اللصوق بها .. ووجد نفسه يغذ فى السير ، ولكن علام الإسراع وما هناك حاجة إلى الإسراع فما زال فى الوقت متسع ؟ وأحس همسا خفيفا ينبعث من داخله يستفسر : « ترى أتغذ فى السير لتلحق بها وتتطلع إليها ؟ » . وما هجس هذا الهاجس فى نفسه حتى تفزع وجفل ، وضيق من خطوه وتعوذ وابتدأ فى قراءة المعوذتين .

وبلغ صلاح محطة الترام فوجدها هناك تنتظر لا تستطيع السكون لحظة ،

فهى تتطلع إلى الناحية التى سيقدم منها الترام فى قلق ، ثم تنظر إلى الساعة التى فى معصمها ، ثم تلتفت أمامها وخلفها ويمنة ويسرة ، ثم تأخذ فى قطع إفريز الترام هابطة صاعدة فى تبرم . وكانت حركاتها سريعة ، وكان جسمها يموج موجا كأنما قد سرى فيه تيار كهربى . واقتربت منه وهو واقف فى مكانه والتقت عيناها بعينيه فأطرق ، وأولته ظهرها وابتدأت فى قطع الإفريز هابطة فتبعها بنظره فوجدها فاتنة القوام ، فعلى الرغم من أنها ممتلئة قليلا إلا أن جسمها مفصل تفصيلا ، وكان يزينها شعر سبط طويل أسود كليل اختفت منه النجوم . وساءه أن يتبعها بنظره فأسبل جفنيه واستدار ينظر إلى الناحية الأخرى وجعل يقرأ بعض السور القصار ، وأقبل الترام فقفزت إليه خفيفة رشيقة كعادتها ، وصعد هو فى تؤدة وشفتاه فى حركة سريعة دائمة .

٤

عاد صلاح من عمله فتناول غداءه ثم تمدد قليلا ؛ ولما أذن المؤذن بالعصر نهض وصلى ، ثم سحب كرسياً ودخل الشرفة يستروح نسيم الأصيل ، وجلس يملأ رئتيه بالهواء وينفثه فى هدوء . ومرت مدة وهو ساكن هادئ حتى دخلت زوجه وجلست على كرسى بجواره وهم أن يقص عليها خبر فتاة الصباح التى لم يرها قبل اليوم ولكنه أحجم ، فماله ومالها ؟ وظل فى صمته يتطلع إلى الطريق ، وراح الوقت يمر وهما صامتان ، حتى فتحت شرفة الجيران وظهرت فتاة الصباح فى ثوب منزلى بديع أزرق اللون محبوك مسبوك أبرز مفاتنها وزادها حسنا على حسن . ولمحها صلاح فتطلع إليها برهة ثم رد الطرف ، وتلاقت عيناها بعينى سميرة فأومأت إليها برأسها محيية ، فردت سميرة التحية بإيماءة خفيفة من رأسها وبابتسامة برقت لمحة ثم ماتت سريعا ، فالتفت صلاح إلى زوجه وقال :

— أتعرفينها ؟

— إنها ابنة الجيران .

— ولكننا لم نرها قبل اليوم .

— نقلت إلى القاهرة حديثا .

— نقلت ؟

— إنها مدرسة كانت تعمل فى طنطا ، وقد سعى أبوها حتى تم نقلها .

— لا بد أن لهم أهلا فى طنطا .

ـــ أبدا .

ـــ أبدا ؟ ومع من كانت تعيش ؟!

ـــ وحدها .

ـــ وحدها ؟! كيف تعيش فتاة فى مثل سنها وحدها ؟

ـــ إن أمها تفخر بها وتقول : ابنتى رجل .

ـــ ما شاء الله ! أهذا معقول ؟ إن النبى ﷺ يقول : لا تسافر امرأة مسيرة يوم وليلة إلا ومعها ذو رحم محرم .

ـــ تغيرت الأوضاع وانقضى ذلك الأوان .

ـــ وانقضت فضائله .

ـــ أصبحنا نرى فتيات فى كل ميدان ، وقد اطمأن الأهل لهن ..

ـــ هذه غفلة الأهل . فكيف نترك لهن الحبل على الغارب ونحن مطمئنون يفرحنا التشدق بالألفاظ : « إن ابنتنا رجل لا خوف عليها » ؟ ليس من المعقول يا سميرة أن نترك الشاة فى رعاية الذئب ، سيلتهمها لا محالة . فإن خالجنا شك فى ذلك كنا من الغافلين .

ـــ أعدت الفتاة لخوض معركة الحياة .

ـــ وما هو هذا الإعداد ؟ أغيروا من طبيعتها ؟ إن للطبيعة نداءات .

ـــ ثقفوها وحصنوها بالعلم ، ثم ألقوا بها فى اليم مطمئنين .

ـــ سيجرفها التيار . قد ركبت فيها غرائز وشهوات ورغبات . فإذا يسرنا لها طريق إشباع تلك الرغبات قطعت تلك الطريق . إنها ستحب . وما أيسر الاتصال بمن تحب على من كانت حرة بلا رقيب .

ـــ إذا أحبت تزوجت ممن تحب .

ـــ هذا هو السراب الخادع ، ليس كل الرجال على استعداد للزواج ، وما

الطريق ، فانحسر ثوبها وظهرت ساقها عارية كأنما خرطت من مرمر فأحس نشوة خفيفة . واستمر فى تطلعه وهو يحسب أنها لا تفطن إلى موقفه ، وعجب فى نفسه : ما بال مجرد ساق عارية تهزه وتحرك نشوته بينا لا يؤثر فيه التصاق جسمه بجسم زوجه ؟ ، والتفتت برأسها نحوه فالتقت عيناها بعينيه ، وخيل إليه أن عينيها تبتسمان . وعلى الرغم من أنها فطنت إلى وقوفه فإنها لم تسارع إلى تغطية ساقها ، أو رد الثدى النافر إلى مكانه تحت الثوب الأزرق المفتوح الجيب . و لم يطق الصبر طويلا على تلاقى العيون فغض من بصره ، واستمرت هى فى التطلع إليه دون أن تختلج عينها خلجة ، فأحس بالخجل وترك الشرفة ودخل .

٥

أصبح الصباح وفتح صلاح باب مسكنه لينطلق إلى عمله ، ثم خرج منه وأغلقه خلفه . ولم يهبط فى الدرج مباشرة بل وقف لحظة يتطلع إلى باب الجيران الموصد ينتظر أن يفتح بين لحظة وأخرى ، وكان فى قرارة نفسه يتوق إلى أن تخرج منه فتاة الأمس ، على الرغم من أنه كان ينفى ذلك الخاطر ويحاول أن يجد لوقوفه تعليلا آخر ترتاح إليه نفسه المرتابة . وسار الهوينى ، وهبط متمهلا يتلفت خلفه بين الفينة والفينة . وسمع وقع أقدام هابطة فانشغل بإصلاح رباط حذائه حتى يلحق به الهابط وليرى من يكون ، واقترب صوت الأقدام وأصبح الهابط على مقربة منه فلو أنه رفع رأسه لرآه ، فاشتد وجيب قلبه وأحس به يسقط فى قدميه . ولم يقدر على رفع رأسه فاستدار دون أن ينظر واستأنف هبوطه متمهلا ، ومرق الهابط بجواره ولمس كتفه كتفه فأحس هزة خفيفة . وسبقه النازل فلم يكن هى ، فأحس صلاح راحة تكتنفه كأنما فر من شيء يهابه . وصفت نفسه فجعلت تؤنبه وتنعى عليه مسلكه المشين ، فماله يتباطأ اليوم فى هبوطه بينا نزل بالأمس فى الدرج مهرولا معللا ذلك النشاط بجو الربيع المنعش ؟ إنه أسرع بالأمس ليلحق بها وتباطأ اليوم لتلحق به . ولكن لم يعجبه هذا الاتهام فراح يدفعه بقوة وينكر أن يكون لمثل تلك الفتاة تأثير عليه . إنه أقوى من أن تؤثر فيه فتاة وإنه على قهر شيطانه لقدير ، فلتقر نفسه المضطربة المتهمة بالباطل المدانة ظلما .

وبلغ الطريق وابتدأت شفتاه تتحركان متمتمة بعض آى الذكر الحكيم ،

و لم يشغله ما كان يقرأ عن التلفت خلفه بين لحظة وأخرى ، فإنه كلما قطع بضع خطوات تلفت خلفه . وسأل نفسه : « لم يتلفت اليوم خلفه وما كان يتلفت أبدا إذا سار ؟ » . فهمس فى أذنه هامس : « إنه يبحث عنها » . وما فكر فى هذا حتى تفزع وأنكره وجعل يعلل تلفته بأنه يستكشف الطريق خشية أن تدهمه عجلة من العجلات المنطلقة سريعا ، وقد استراح إلى هذا التعليل و لم يكلف نفسه مؤنة سؤالها أنه ما كان يتلفت خلفه قبل اليوم على الرغم من أن الطريق هى نفس الطريق التى يقطعها منذ سنين ، وأن العجلات كانت تنطلق بجواره قبل اليوم وما كان يحفل بها أو يخشى غدرها .

ولاحت له محطة الترام فأخذت عيناه تنتقلان بين المنتظرين على الإفريز سريعا حتى إذا ما وقعتا عليها استقرتا مدة . وأحس اضطرابا لم يدر له من تأويل ، ووقفت حركة شفتيه الدائمة قليلا . ثم ما لبث أن أسبل عينيه واستأنف ما كان يقرأ وسار بخطوات ثابتة حتى وقف على الإفريز ينتظر الترام . ومرت مدة ، وعادت عيناه تصوبان إليها وتدوران معها أينما دارت ، فصارتا كعباد شمس يتبع معبودته أينما ولت وفطن إلى حركات عينيه العاصيتين لما أقبل الترام فتعوذ من الشيطان وركب دون أن ينظر إليها . ووجد مقعدا خاليا فجلس ونظر من النافذة المجاورة إلى الطريق ساهما لا يفكر فى شىء . وانطلق الترام وهو ساهم ثم عاد إلى نفسه واعتدل فى جلسته ونظر داخل الترام فوقع نظره عليها واقفة بجواره مستندة إلى المقعد الجالس عليه ، فارتجف رجفة وهب كالمذعور وقال لها وقلبه يضطرب :

ـــ تفضلى ... تفضلى .

وتنحى عن مقعده فجلست وقد ابتسمت له ابتسامة حلوة ، وتمتمت :

ـــ متشكرة .

وجعل صلاح يرقبها من طرف خفي ، فراعه سواد عينيها وبريقهما الأخاذ . وجاءت جلستها بجوار زميلة لها فدار الحديث بينهما ، وألفى نفسه ينصت إلى حديثهما على الرغم منه فراعه ذلك ، وحاول أن يصم أذنيه وأن يشغل نفسه شيء آخر يشغله عن متابعة حديثهما فراح يتفرس فى وجوه الراكبين مرة ، ويعدهم مرة أخرى ، ولكن محاولاته جميعا ذهبت سدى ، فقد كان صوتها يمس أذنيه فينعشه فيرهف السمع على الرغم منه ، وإنه لينتشى لسماع صوتها ولو أنكر هو ذلك فى قرارة نفسه إنكارا ، ولو أرجع تسمعه إلى تلك الغريزة القبيحة التى ركبت فى النفس لإغرائها على استراق السمع .

كان حديثهما تافها لا يستحق إنصاتا ، فقد تحدثتا عن الأزياء ، ثم عن زميلة لهما وما فعلته الناظرة معها ، ثم انتقلتا إلى حديث السينما وروايات الأسبوع ، وجعلت صديقتها تصف لها رواية شهدتها وتسهب فى الوصف ، ثم أردفت وهى تضحك :

ـــ كانت رواية بديعة يا بديعة .

فابتسمت الأخرى وقالت :

ـــ سأذهب اليوم لمشاهدتها .

ووصل الترام إلى محطة هبوط صلاح فنزل مسرعا وانطلق إلى عمله .

٦

وقف صلاح يصلى العصر وابتدأ فى قراءة الفاتحة ، وشرد فكره وهو يقرأ وراح يتذكر بديعة وحديث الصباح ويفكر فى الخروج إلى السينما ، وراح شيطانه يمد له فى حبل الغواية فيزين له الخروج اليوم ليروح عن نفسه . وعاد صلاح إلى نفسه وهو يركع فأفزعه شرود ذهنه وهو بين يدى الله فسلم وقطع صلاته ليستأنفها فى خشوع ، ثم انتصب واقفا وكبر مبتدئا الصلاة متصنعا الرهبة ، ولكن ما لبث فكره أن شرد يفكر فى بديعة ذات العيون الواسعة والبريق الأخاذ . واستمر شيطانه يوسوس له حتى إذا ما سجد لم يدر أثلاث ركعات صلى أم أربعا ؟ فلم يسعه إلا التسليم والخروج من الصلاة وقد ضاق صدره وحنق على نفسه . وهم واقفا ليستأنف صلاته للمرة الثالثة وقد أطرق رأسه واندمج فى صلاته ، ولكنه لم يستطع كبح جماح فكره فشرد واستمر فى صلاته حتى أتمها ، ولما سلم غمغم مطمئنا نفسه : « قال رسول الله ﷺ : إن الله تجاوز عن أمتى ما وسوست به صدورها ما لم تفعل به أو تتكلم » .

تمدد صلاح عقب الصلاة على مقعد طويل وراح يفكر فى الخروج إلى السينما ، ولكن لماذا يفكر فى السينما اليوم و لم يفكر فيها منذ سنين ؟ إنه ليذكر آخر مرة شهدها يوم كانت رواية صلاح الدين والصليبيين تعرض ، وإنه ليشتاق إلى الذهاب ليرى الرواية الجديدة التى يتحدث عنها الجميع . ولكن لماذا الذهاب اليوم بالذات ؟ فليؤجل ذلك إلى يوم آخر ، حتى لا تتهمه نفسه بأنه يود رؤية بديعة ظلما وعدوانا .

وخرج إلى الشرفة فوجد بديعة فى شرفتها وقد اكتملت زينتها تتأهب للخروج . فاندفع كالشهاب إلى ملابسه وارتداها على عجل دون وعى منه . وهبط فى الدرج قافزا . وقطع الطريق إلى محطة الترام مهرولا ، وقبل أن يصل إلى الإفريز لمح الترام واقفا وبديعة تصعد فيه ، وتحرك الترام قبل أن يبلغه فجرى شوطا ، ولما بلغه قفز فيه ووقف وأنفاسه مبهورة . وابتدأت نفسه تصفو رويدا رويدا ، ولما هدأت عجب فى نفسه وجعل يتساءل : « كيف ارتدى ملابسه هكذا سريعا ؟ وكيف قطع الطريق الطويلة الموصلة إلى الترام مهرولا ؟ وكيف جرى خلف الترام وما فعل ذلك قبل الآن ؟ وكيف جرؤ على أن يقفز فيه وهو يعدو سريعا وما ركبه بعد أن ترك محطته أبدا ؟ لماذا كل هذا ؟ أهى بديعة ؟ ولكن ماله وبديعة فليس هناك ما يربطه بها ؟ إنه ما فعل ذلك إلا لأنه يرغب فى الذهاب إلى السينما و لم يستطع قمع رغبته ، وما جرى خلف الترام إلا لأن ميعاد السينما قد أزف .

إنه فكر فى الخروج إلى السينما قبل أن يرى بديعة فى شرفتها . حقيقة إن الذهاب إلى السينما لم يخطر على باله قبل أن يسمع حديث الصباح ، ولكن ليس معنى هذا أنه من وحيها . فما أكثر ما يوحى حديث عارض إلى المرء بأشياء ، فلو أنه كان قد سمع نفس الحديث من أناس آخرين لراودته فكرة الذهاب كما راودته اليوم ، ولألحت عليه كما ألحت اليوم . إنه خرج لأنه يشتاق إلى السينما لا لأن بديعة خرجت ولا لأنه يود رؤيتها . إنه أقوى من أن تهزمه شهواته أو أن تفتنه امرأة ، ولكى يبرهن لنفسه أنه ما خرج من أجل بديعة فقد عزم على أن يعود أدراجه وأن يؤجل الذهاب إلى يوم آخر .

وبلغ الترام محطة السينما فهبطت بديعة ، وقفز إلى ذهن صلاح خاطر : « إن فى عودته دليلا على ضعفه ، فما معنى ذلك إلا أنه يهابها ويخشاها ، فلو أن التى

هبطت من الترام امرأة أخرى غير بديعة أكان يفر من طريقها ؟ إن فراره دليل عجزه ، فما بديعة إلا واحدة من آلاف يقابلهن كل يوم ، فلماذا يغير وجهته من أجلها ؟ وأقنع نفسه أن نكوصه عجز واعتراف بما تهمس به النفس ، فهبط من الترام ويمم إلى السينما ثابت القدم وأسرع ليشترى تذكرته ، فلما بلغ الدار وقف فى الصف الطويل أمام شباك التذاكر ، وكانت عينه تلتفت إلى مدخل الدار بين الفينة والفينة . ولمحها مقبلة فتزايدت ضربات قلبه وانتشر إحساس بالرهبة فى صدره ، واقتربت من الصف الطويل المنتظر أمام الشباك وأخذت تنقل بصرها فى تبرم حتى وقعت عيناها عليه ، فانفرجت أساريرها وابتسمت . فلم يسعه إلا أن يبتسم ويتكلف الهدوء وإن كانت الثورة قد نشبت فى صدره . وفتحت حافظتها وأخرجت ورقة مالية صغيرة ، ثم تقدمت منه وقالت له وهى تمد يدها بالورقة :

— تسمح ؟

فأغلق عليه ولم يدر ما يقول ، ولم يشعر إلا ويده تمتد وتتناول الورقة ، وأخيرا ابتسم ابتسامة باهتة كلفته كثيرا ولم تنبس شفته بكلمة .

كان زحف صلاح إلى الشباك بطيئا ، ولم يكن زحف الأحاسيس التى تحركت فى صدره بطيئا بل قفزت إلى ميدان صدره تتصارع فى عنف ، وبقى وهو فريسة لها لا يدرى مع أيها يميل ؛ فقد راح قلبه يحرضه على أن يختار لها مقعدا بجواره لينعم بقربها ساعات ، وجعل عقله يحذره مغبة ذلك ويطلب فى إلحاح أن يختار لها مقعدا بعيدا حتى لا تظن به الظنون وحتى يرتاح من تبكيت ضميره ، واستمر الصراع شديدا لا هوادة فيه . ووجد نفسه أمام الشباك وأصبعه تشير إلى مقعد ثم تشير إلى مقعد أمامه ، وتناول التذكرتين وتنفس الصعداء مرتاحا فقد انتصر عقله على قلبه أخيرا ، ويمم صوبها وناولها تذكرتها

فى لطف فشكرته ، فرد عليها شكرها فى حياء وانصرف .

جلس صلاح على مقعده ورأى بديعة أمامه وقد استرسل شعرها الأسود الطويل حتى لتدلى فى الفراغ الفاصل بين مقعديهما ، فهفت نفسه إلى أن يمرر بيده على ذلك الليل الساحر . وهمّ أكثر من مرة بتحقيق ما تصبو إليه نفسه ولكنه كان يحجم . وأطفئت الأنوار وابتدأ العرض ، وراودته نفسه مرات على أن يمد رجله أمامه تحت مقعدها ليبحث عن قدمها يداعبها ، وكان يقمع تلك الشهوة تحت ضغط الرهبة التى كانت تكتنفه كلما اقتربت قدمه . وجمع شتات شجاعته مرة ومد يده وقبض على أطراف شعرها فى كفه وأخذ يتحسسها فى نشوة ، ولكنه تركها سريعا خشية أن تحس به .

وانتهى العرض وما شهد صلاح من الرواية شيئا كثيراً ، فقد كان مشغولا بالرواية العنيفة التى كانت تمثل فى صدره وعاد إلى الدار مطمئنا فقد انتصر على شيطانه فى زعمه .

٧

تكررت المقابلات العارضة بينهما بعد ذلك كثيرا ، فقد التقيا عند محطة الترام مرارا ، والتقيا مرات أثناء الهبوط فى الدرج أو الصعود ، وكانا يتبادلان تحية عابرة ثم ينصرف كل منهما إلى حاله . وطرأ على صلاح تغير كبير فقد صار يفكر فى بديعة دون أن يفزع ، ويحس نشوة إذا وقعت عيناه عليها ، وأضحت صلاته فاترة لا حرارة فيها . وقد حاول فى أول الأمر أن يجمع شتات فكره فى أثناء الصلاة وأن يفكر فيما يقرأ من القرآن ، ولكن كان فكره يشت وينطلق إلى حيث يحب فتتماثل له بديعة فى الصور التى يشتهيها . وقد ضايقه ذلك فى أول الأمر ولكنه أصبح الآن لا يضيق بنفسه إذا ما فكر فيها أثناء صلاته ، كأنما قد اعتاد ذلك كما اعتاد الصلاة من قبل . وشاركته بديعة فى صلاته فكانت محضرة فى خياله إذا ما صلى لا تريم ولا تتزحزح ، فإذا ركع رآها فى ثوبها المشجر الجميل الذى رآها فيه يوم السينما ، وكان إذا ما انتهى من الصلاة أسرع إلى الشرفة ليمتع الطرف بمحياها . فإذا ما غابت عن الشرفة يوما يحس قلقا ويشعر بعقارب الغيرة تلسعه ، ويأخذ فى التساؤل أين تتجه مثيلاتها ؟ وكثيرا ما كانت غيرته تعذبه فتوهمه أنها ما خرجت إلا لمقابلة صديق من الأصدقاء تحبه ويحبها .

وفى يوم من الأيام فكر فيما وصل إليه حاله ففزع ، وعقد العزم على أن يكافح رغباته الشريرة وأن ينتصر على شيطانه الذى كاد يرديه ، فراح يطرد طيفها جاهدا أثناء صلاته وما كان طيفها لينثنى عنه . وصمم على عدم الخروج إلى الشرفة حتى لا تقع عيناه عليها ، ولكنه كان يجد نفسه مدفوعا إليها مسلوب

الإرادة ، تدفعه قوة خفية إليها دفعا لا يستطيع لها قهرا . ترى أسرى شيطانه فيه مسرى الدم ؟ وما فكر فى هذا حتى نبته الراحة وجفاه الاطمئنان ، وقر رأيه على أن ينزع بديعة من فكره نزعا حتى يعود إلى حياته الأولى ، حياة الدعة والاطمئنان والهدوء . فمد يده وتناول مسبحته وأخذ يسبح فى حرارة ، وراحت الحبات تمر بين أصابعه مرا سريعا ، ومرت مدة خمدت بعدها حرارة التسبيح ، وابتدأت صورتها ترنو إليه وتزحف على حذر حتى تربعت فى خياله وسيطرت على لبه .

وفى يوم من الأيام قابلها عند محطة الترام فحياها كعادته ، ولما أقبل الترام صعدا معا وجلسا متجاورين ، ووجد صلاح نفسه يبدأها بالحديث فتشجعه وترد عليه ردا ترك أمامه أبواب الحديث مفتوحة ، واندمجا فى الحديث كأنما كانا قد تعارفا من قبل . ورفعت بينهما الكلفة ووجد صلاح نفسه تتفتح وتنتعش ويدور لسانه فى يسر ، ولاحظ أن محطة نزوله قد اقتربت فوجد نفسه يسألها :

ـــ أتخرجين عصر اليوم ؟

ـــ ولم ؟

ـــ رأيت أن أتجرأ وأسألك الخروج معا لنستأنف حديثنا .

ـــ آسفة .

ـــ آسف أن عرضت عليك ذلك .

ـــ لولا ارتباطى بموعد اليوم مع بعض صديقاتى لما رفضت ، غدا إن شئت .

ـــ كما تحبين .. ومتى وأين ؟

ـــ عند محطة الترام فى الخامسة والنصف .

وترك صلاح الترام منشرح النفس ، ولكن لم يدم ذلك الانشراح طويلا فقد ابتدأ ضميره يستيقظ عقب هبوطه ، وأخذ يلومه على مسلكه الذى سلكه ويؤنبه على جلوسه مع فتاة غريبة عنه يستمع إليها ويتودد ، وياليته اكتفى بذلك بل واعدها و لم ينقض وضوء الصباح بعد . وصاح ضميره فيه : « إن صلاتك لا خير فيها ، فلا خير فى صلاة لا تنهى عن فاحشة أو منكر » . فأطرق صلاح أسيفا حزينا ، ترى أباع نفسه للشيطان ؟ فهب يذب عن نفسه كما تعود أن يفعل وغمغم : « لا والله ، فلن يقابلها غدا ولن يهزمه شيطانه أبدا » .

وبلغ صلاح مقر عمله وابتدأ يعمل كما تعود أن يعمل كل يوم ، وانقضت فترة شرد بعدها فكره وجعل يفكر فيما دار بينه وبينها فى الترام . وحاول أن يجمع شتات فكره أكثر من مرة ويركزه فى عمله ولكنه أخفق فى محاولاته . وألحت صورتها عليه فاحتلت خياله وازداد وجيب قلبه ، فضاق ذرعا بحاله فألقى برأسه إلى الخلف حتى استقر على حافة مسند مقعده وراح يفكر فى شيء آخر يشغل به فكره ، ولكن كان خياله يعود سريعا إلى بديعة فيجتر صورها ويتذكر حديثها ، فتململ حانقا وابتدأ يردد : « واحد .. اثنان .. ثلاثة .. واحد .. اثنان .. ثلاثة » . واستمر على ذلك مدة فنجح فى تحويل فكره عنها إلى حين ، وسرعان ما خفت الترديد وعاد إلى التفكر فيها ، فهب مفزوعا وجعل يضرب جبهته ببطن كفه ضربات متتابعات سريعة وهو يقطع الحجرة حائرا مضطربا كأنما يحاول أن يطرد ذلك الضيف الثقيل الذى نزل بخياله ، والذى يتهافت عليه تهافت الذباب الذى كلما طرد عاد وهو أشد إصرارا وعنادا . وفكر فى أن يشغل نفسه بالتسبيح فراح يردد : « سبحان الله والحمد لله ولا إلـه إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله » . واستمر يبدئ ويعيد فى حماس حتى أخذته الجلالة فارتفع صوته واهتز رأسه ، ونجح فى طرد طيفها

الذى أقلقه إلى حين .

وعاد صلاح إلى الدار وتناول غداءه ، ثم تمدد فى فراشه ليقيل ولكن لم يغمض له عين ؛ فقد تآزر قلبه وفكره عليه وأخذا يضنيانه ويعذبانه ، ففكره لا يحلو له إلا التفكير فيها ، وقلبه يطرب لذكرها فيأخذ فى الرقص ، ونفسه لا تقر رقص قلبه ولا شرود فكره فتبدأ فى وخزه ، وإن لوخز نفسه ألما شديدا ما أقساه ، فيتلوى فى سريره ويتساءل : « لم ابتلاه الله هذه البلوى ؟ و لم يمتحنه هذا الامتحان العسير ؟ » . فما أسرع أن يهمس صوت غروره بالجواب : « إن الله لا يبتلى إلا عباده المخلصين وهو من خيرة عباده ، وسيخرج من محنته مرفوع الجبين » . وقر قراره على ألا يفكر فيها أبدا وعلى أن يقتلعها من فكره اقتلاعا فأحس راحة لقراره هذا الحكيم ، كأنما ذلك أمر يسير . وانقضت لحظات وهو هادئ ساكن لا يفكر فى شىء فحسب أنه على إنفاذ قراره من القادرين ..فانتشت نفسه سريعا وانشرح صدره قليلا . وقبل أن يتم صفوه قفزت صورة بديعة إلى خياله والتصقت به لا تريم ، وراح يفكر فيها فأحس نشوة فى قلبه وأن نفسه تهفو إليها ، ويديه تشتاقان إلى المرور على شعرها الجميل وذراعيها البضتين ..وعينيه تتمنيان الرنو إلى عينيها البراقتين الواسعتين ، وشفتيه تشتهيان لثم شفتيها . تبا له ! لقد تآمرت عليه حواسه جميعا فهو من الهالكين . وأفزعه ما فكر فيه فهب فى سريره قاعدا ، ومر بيديه على وجهه ، وهز رأسه هزا سريعا كأنما يطرد كابوسا مخيفا جثم على صدره . وأجال بنظره فى الحجرة فرأى زوجه تغط فى نوم عميق ، فتطلع إليها فأحس نوعا من الغيرة يأكل صدره فغمغم : « يا للسعيدة ، تنام ملء جفنيها ، فلا فكر يؤرقها ولا شك يعذبها » . ومر بنظره عليها فألفاها مشرقة الوجه حلوة التقاسيم لا تقل عن بديعة جمالا ، فما بال مجرد نظرة من بديعة تهزه هزا وتجعله يضطرب اضطرابا ؟ هل لا نقدر

ما نملك ، ولا تهفو نفوسنا إلا إلى ما لا نملك ؟ واستمر يديم النظر إليها حتى انقشعت سحابة الغيرة التى احتلت صدره ، وابتدأ يسرى فيه إحساس بالعطف عليها والشفقة لها فهمس : « بل يا للبائسة ، إنها لتنام مطمئنة لا تدرى فيم يفكر زوجها الحبيب ؟ ترى أى عذاب كانت تصطليه لو أنها علمت ما يقلق زوجها ويؤرقه ، لو دار بخلدها أن هناك امرأة غيرها تسلبه لبه وتحتل فكره ؟ يا له من شقى ! كيف يقبل أن يخون زوجه ولو فى الخيال ؟ كيف يرضى أن يشرك غيرها معها فى تفكيره ؟ بل كيف يسمح لنفسه أن يفكر فى غيرها دواما ولا يفكر فيها أبدا ؟ إن بديعة لتتخايل له فى يقظته ومنامه ، وإنه لا يذكر أنه فكر فى زوجه مرة واحدة بعد تركه الدار . كيف سمح لنفسه بهذا ؟ أيرضيه أن تفكر سميرة فى سواه ؟ » . وما فكر فى هذا حتى فزع ، وأحس رغبة غى أن يضمها إلى صدره كأنما يخشى أن يخطفها منه خاطف ، فقام من سريره وسار إلى سريرها وركع بجواره ، ولف ذراعه حولها وراح يلثم كل موضع فيها .

* * *

أتم صلاح صلاة العصر فرفع يديه إلى السماء وراح يدعو فى ضراعة ، فخرجت الكلمات حارة أحس حرارتها فى صدره وما كان يحس حرارة فى دعائه قبل يومه ، وكان الدعاء جديدا عليه ، فما كان قبل الآن يلتمس لنفسه الرشد بل كان يطلب الخير فى الدنيا والآخرة ؛ ولكنه اليوم يدعو : « اللهم آت نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، وأنت وليها ومولاها ، اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن دعاء لا يستجاب له » . ثم ترك سجادة الصلاة وسار مطاطئ البصر حتى دخل غرفته ، فتناول المصحف وراح يقرأ فيه ؛ وانقضى الوقت وحان ميعاد خروجه إلى الشرفة

لتكتحل عيناه برؤيتها فأحس عزوفا عن القراءة ورغبة ملحة فى الانطلاق إلى هناك . فجعل يقاوم رغبته ويرغم نفسه على القراءة إرغاما ، ولكن عينيه ثبتتا و لم تتحركا ، وابتدأ ذهنه يتحرك وإذا ما تحرك فإنه يعلم وجهته ، فما كان يتجه إلا إليها وما كان يحب إلا التفكير فيها . وابتدأ يفكر فيما يحب ، فترك صلاح المصحف فى تبرم وراح يقطع الحجرة هابطا صاعدا فى قلق . وألفى نفسه يسير كالمسحور إلى الشرفة ، وقبل أن يدلف إليها يصحو إلى نفسه فيعود إلى غرفته سريعا . واستمر اضطراب نفسه ، وأحس اختناقا أرجعه إلى فساد جو الغرفة فاتجه إلى النوافذ وفتحها ، فلفح الهواء وجهه وملأ رئتيه بالهواء ، وعلى الرغم من ذلك استمر الضيق على حاله . واشتدت رغبته فى الذهاب إلى الشرفة وألحت عليه هذه الرغبة إلحاحا حتى كاد زمام أمره يفلت من يده أكثر من مرة ، ولكنه كان فى كل مرة يجمع أشتات عزيمته ويخنق تلك الرغبة خنقا . وانقضى النهار وقد نجح فى كبح زمام رغبته ، بعد كفاح مرير ونضال قتال أجهده كثيرا وجعله يسقط على مقعده فى إعياء وتعب .

ودخل فراشه وهو راض عن نفسه مثلوج الصدر ، فقد نجح لأول مرة فى كبح جماح شهوة نفسه فلم يطعها ، وما دخل الشرفة وما رأى بديعة . وإنه ليعد ذلك نصرا وسيتبعه انتصارات ، فلن يراها أبدا ولن يقابلها غدا فى الموعد المضروب ، وسيخرج فى الصباح الباكر قبل موعده اليومى حتى لا تقع عينه عليها ، وحتى لا ينكأ جرحه الذى بدأ فى الاندمال .

وانقضى الليل هادئا فما تخايلت له فى أحلامه ، فأيقن أنه انتصر على شيطانه . وما إن استيقظ قبل مولد النهار بلحظات حتى ألفى نفسه يفكر فيها وفى الميعاد الذى ضربه لها ، فتململ فى رقدته وضاق بأفكاره وأحس رهبة تنطلق فى صدره ، فنهض وتوضأ وقام يصلى ، فما تركت فكره لحظة ولا

غابت عن عينيه على الرغم من أنه كان يغمضهما ليطرد شبحها الماثـل أمامه . وقضيت الصلاة على أسوأ ما تكون صلاة ؛ فما درى أصلى ركعتين أم ثلاثا ، أقرأ سورة بعد الفاتحة فى الركعة الثانية أم لم يقرأ ؟ أسجد مرة واحدة فى الركعة الأولى أم مرتين ؟ وجلس على السجادة حزينا يحز الألم فى نفسه ، وأقبلت زوجه فتنحى لها عن السجادة ، وجلس على الأرض بالقرب منها يرقبها وهى تصلى فى اطمئنان وتركع فى خشوع ، فأحس نفسه يحسدها على صلاتها لأول مرة فى حياته ، وينفس عليها هدوءها وطمأنينتها .

٨

وفى الصباح الباكر خرج صلاح متعللا بأن هناك عملا كثيرا متراكما يود إنجازه فلم يقابل بديعة . واستمر طوال يومه مضطربا يؤكد لنفسه أنه لن يخرج فى الخامسة والنصف للقياها . وضعفت نفسه مرات فى أثناء النهار وفكرت فى الخروج ولكنه كان يشد من أزر نفسه ويردها إلى قرارها الأول ، إنه لن يقابلها وهذا هو الرأى الأول والأخير .

وعاد بعد الظهر من عمله ، وراح الوقت يمر متباطئا ثقيلا ، وابتدأت فتنة صدره تتحرك ، فقد استيقظ القلب وهب يطالب بحقه صاخبا مشاغبا ، وأرهفت منه الحواس جميعا وراحت تطالبه بالوفاء ، وشد شيطانه من أزر حواسه الثائرة فلبس ثوب الناصح وراح يقنعه بأن فى مقابلتها نجاته ؛ فإن فى إحجامه عن مقابلتها إشعالا لنار شوقه فيزداد بها تعلقا ، ويصبح من الصعب على قلبه نبذها . أما لو قابلها اليوم فستنطفئ جذوة شوقه ، وسيعود إليه هدوؤه الذى فقده ، وسينقضى قلقه واضطرابه . إنه يهيم بالأحلام ويحن إلى المجهول ، فإذا ما أصبحت الأحلام حقيقة والمجهول معلوما فقدت روعتها وسحر تأثيرها ، وعادت إليه نفسه راضية مطمئنة . وأخذ شيطانه يزين له الخروج وينفخ فى غروره فيقنعه أنه قوى لن يؤثر فيه لقاؤها ولقد واتته الفرصة يوم السينما فلو كان ضعيفا لا نتهزها ، ولكنه فوتها متعمدا . إنه أقوى من أن يضعف أمامها ، فما الذى يخشاه من لقائها ؟ أيخشى أن تجره إلى ارتكاب معصية ؟! هذا محال فلن يرتكب معصية أبدا . وأحس عزيمته تذوب تحت

حرارة إغراء شيطانه كما تذوب الشمعة تحت حرارة النار . وشعر بنفسه تضعف وتخور ، فهب يقطع الحجرة جيئة وذهوبا فى تبرم وقلق ورهبة هاتفا من أعماق نفسه : « لن أذهب ولن أستمع لهذا اللغو أبدا » . ولم يهدأ لحظة ، واستمر القلق يساوره والرهبة تتملكه والقلب يخفق خفقانا والصدر يكاد ينفجر من ضغط الأحاسيس المتباينة التى اتخذت منه مسرحا لاضطرابها وتصارعها . وبلغ الضيق به منتهاه فأحس نفسه تدمى ، وراح يفكر فيما ينقذه من عذابه فتذكر قصة قرأها ، قصة قس اعتكف فى دير من الأديرة يتعبد ، وانقضت مدة طويلة لم يقابل فيها إنسيا ، فأرهفت حواسه جميعا، وأصبح سمعه حديدا ، يميز أخفت الأصوات ، واشتهر أمره بين أهل المنطقة ، وتحدث الناس بتقواه ، فأقبلوا من كل صوب وحدب يتبركون به . وترامى نبؤه إلى غانية فاتنة لعوب فوسوس لها شيطانها أن تغوى القس الورع ، فتزينت وخرجت لترضى شيطانها ، وما إن بلغت بابه حتى طرقته فسمعت صوتا هادئا يستفسر : « من الطارق ؟ » فأجابت بصوت فيه غنج ودلال : « أنا امرأة شقية جاءت تلتمس البركة » . وكأنما أحس الورع بغيتها فطلب منها أن تنتظره فى الغرفة المجاورة ، فدخلت حيث أشار عليها ، وسمع القس حفيف ثوب فأيقن أنها تخلع ثوبها عنها ، فتحركت الشهوة فى نفسه وضعف وهم بأن يندفع إليها ويرتمى فى أحضانها ليروى ظمأه ويطفىء غلته . ولكنه كبح جماح نفسه ، وساوره قلق ، وخشى إن دخل عليها أن يفتنه شيطانه . وفكر فى طردها دون أن يراها ، ولكن ما تقول عنه ؟ أخشى مواجهتها ؟ فعزم على الدخول ، وجالت بخاطره فكرة فراح ينفذها ، فتلفت فى الحجرة فوقع بصره على سكين تناولها وقطع بها أصبعه ، فمات قلقه وفرت شهوته وتحولت أحاسيسه جميعا إلى ألم جسده . واتجه إلى الغرفة المجاورة هادىء النفس يقطر أصبعه دما ، فلم

يحرك ذلك القوام البديع العارى الماثل أمامه شهوته ، فقد كان الألم يتملكه ويسيطر على حواسه . فلماذا لا يقتفى أثر ذلك الورع ؟ لماذا لا يقطع أصبعه ليحول ألم النفس إلى ألم الجسد ، وما أسرع ما يندمل جرح البدن . إنه إن أحجم فسينتصر شيطانه وستصاحبه معصيته إلى يوم الدين ، إنه ليعلم أن فى خروجه لذة يتبعها حسرة وعذاب مقيم ، ومع ذلك لا يستطيع قمع شهوة نفسه ، فليقطع أصبعه فهذا هو العلاج الوحيد للبرء من هواجس نفسه التى تضنيه ، ولقتل الأحاسيس التى تستبد به وتدفعه إلى الخروج .

وانطلق وأحضر سكينا وهم بقطع أصبعه ، ولكن خارت عزيمته وسمع صوتا ينبعث من أغوار نفسه يهتف به : « رويدك ولا تكن مجنونا ، لماذا هذا العمل السخيف ؟ أبلغ بك الضعف منتهاه حتى أصبحت تستجيب إلى كل هاتف يهتف بك ؟ أفلا تستطيع أن تعزم على عدم الخروج فلا تخرج ؟ بلى تستطيع فعلام تقطع أصبعك ؟ إنك لن تخرج ولن تقابلها ، هذا هو الرأى الأخير » . واطمأن إلى الهاتف الجديد ، واختلط عليه الأمر فحسبه صوت العقل فاستمع إليه ، ورمى بالسكين بعيدا وما دار بخلده أن القلب هو الذى هتف بما هتف حتى يبقى على الفرصة التى كادت تولى وتفلت منه !

واستمر صلاح فى اضطرابه وقلقه على الرغم من قراره الأخير ، وابتدأت ساعة الحائط تدق معلنة الخامسة ، فكأنما كانت تدق على أوتار قلبه فازداد وجيبه وعلت ضرباته وأخذت تدوى فى أذنيه حتى غطت على دقات الساعة . وابتدأت أجراس كنيسة قريبة تدق فكأنما تآمرت عليه فأخذت تردد : « بديعة .. بديعة .. بديعة .. » . فوضع أصبعه فى أذنه ليصمها عن سماع النداء ، ولكن حواسه كانت قد بلغت من الإرهاف غايته فابتدأت تردد النداء فى داخله على دقات الأجراس المتوهمة : « بديعة .. بديعة .. بديعة ..

بديعة » . وعلى الرغم من أن الأجراس قد كفت وتلاشى صوتها من الوجود إلا أن الهتاف الداخلي استمر طويلا حتى حطم أعصابه ودك مقاومته دكا . .

انهارت مقاومته جميعا فألفى نفسه يتجه إلى ملابسه يرتديها ، وكان قلبه فى صدره كجناح خافق صاعدا هابطا وجلا متشوقا . وتم ارتداء ملابسه فانطلق كالمأخوذ إلى باب مسكنه ، وتحاشى أن تقع عليه عين زوجه فتفطن إلى اضطرابه وقلقه . وأغلق الباب خلفه فأحس رهبة تكتنفه ورجفة تسرى فى بدنه ، ولولا أنه ينطلق إلى معصية لالتمس من الله عونه . ونزل فى الدرج متمهلا شارد اللب ، وما كان قلبه متمهلا بل كان يقفز فى صدره قفزا . وبلغ الطريق وهو يرجو فى قرارة نفسه أن تتخلف عن الحضور ، فلو تخلفت لاستراحت نفسه المضطربة . لقد جمحت نفسه وأفلت منه زمامها فلم يبق أمامه لمنع وقوع المقابلة إلا أمل واحد هو تخلفها . آه لو تخلفت لاستراح ولحطمت كبرياء نفسه فلا تجد ما تعذبه من أجله .

وبلغ محطة الترام وأمل تخلفها يداعبه ، وراح يتفرس فى الواقفين فلما لم يجدها أحس اضطرابا وقلقا ، وفكر عقله فى العودة ولكن وجدانه سخر من عقله وهمس : « كيف تفكر فى العودة وما وافى الميعاد بعد ؟ » . ونظر فى ساعته فوجدها الخامسة والدقيقة الخامسة والعشرين فقرر أن ينتظر الدقائق الباقية وبعدها يعود . واستمر القلق يساوره ، وكان ينظر إلى الساعة بين لحظة وأخرى ، وأخيرا تصرمت الدقائق الخمس ولم تظهر بديعة ، فهمس به هامس : « إلى العودة » . وهتف قلبه : « فلننتظر خمس دقائق أخرى وبعدها نعود » . وأطاع قلبه وراح ينتقل بين أول الشارع وطوار الترام فى قلق واضطراب . وكان الصراع ناشبا فى داخله بين قلبه وعقله ، فالعقل يطالب بالعودة والقلب يطالب بالانتظار . وانقضت الدقائق الخمس فهتف القلب :

« فلننتظر خمس دقائق أخرى » . وأطاع صلاح قلبه مرة ثانية وراح ينتظر وقد جفاه الاطمئنان . وأوشكت الدقائق الخمس على الانصرام فتأهب القلب لالتماس مهلة أخرى ، وما كان صلاح بقادر على أن يرفض له طلبا . لقد كان على استعداد لأن يجيب طلبه للمرة الثالثة والرابعة والخامسة . لكن قبل انقضائها لاحت بديعة فى أكمل زينة عند رأس الطريق فأحس قشعريرة خفيفة تسرى فى بدنه وقلبه يكاد يقفز من فيه وجفافا فى حلقه ، وخيل إليه أن صوته قد انحبس فهمهم ليطمئن على صوته ، وارتفعت يده إلى رباط رقبته تسويه ، ثم امتدت إلى جيبه وأخرجت منديلا لا تدعو حاجة إليه فدس فيه أنفه ثم أعاده إلى جيبه . واقتربت منه وحيته فرد عليها تحيتها بإيماءة من رأسه وهمهمة لم تتجاوز شفتيه . ووقفت بجواره ينتظران الترام فابتدأت نفسه تطمئن وأخذت تصفو شيئا فشيئا وتهدأ رويدا رويدا . وما أقبل الترام حتى كان صلاح الوجل المضطرب قد تلاشى وحل مكانه صلاح آخر منفتح النفس مطمئن الصدر هادئ الأعصاب حلو الحديث ، يفتر ثغره عن ابتسامة حلوة وتبرق عيناه ببريق أخاذ .

مد يده إلى بديعة وساعدها على الصعود ثم قفز خفيفا خلفها ، وأخذ يحادثها وقد انتشت نفسه وحلت عقدة لسانه . وبلغ الترام الزمالك فلم يحس مرور الوقت والتفت إليها وقال :

ـــ أوصلنا إلى هنا سريعا ! هيا .

وهبطا ثم دلفا إلى اليسار ، وانطلقا فى الطريق الهادئ الساكن الممتد على النيل وسارا صامتين كأنما استعارا صمتهما من صمت المكان . واقتربت بديعة منه حتى التصق كتفها بكتفه واصطدمت يدها بيده أكثر من مرة ، واستقرت يدها فى يده أخيرا فراح يضغطها ضغطا خفيفا ، فكان يحس نشوة لذيذة

تسرى فيه ما كان يحسها لو أن اليد التى كانت فى يده يد سميرة . واستمر السكون مخيما عليهما وكان سكونا خارجيا ، ولم تكن نفساهما ساكنتين بل كانتا تعتلجان بشعور فوار ، فقد كان كل منهما يتمنى أن يضم صاحبه إلى صدره ليطفئ ناره .

وبلغا مقعدا خشبيا فجلسا يحدقان فى النيل برهة ، ثم زحفت بديعة على المقعد بخفة حتى التصقت به فملأ عبيرها الشذى أنفه وحرك نفسه . فتاق إلى أن يضمها إليه ويطوقها بذراعيه ويمطر وجهها قبلات ، ولكنه قمع شهوته وقاوم رغبته . ورمى بنظره إلى النيل وجعل يرقب موجاته المتكسرة محاولا أن يتشاغل عن هواتف نفسه ، ولكن رغبته خنقته وسيطرت عليه ، فارتد ببصره إليها وراح يتطلع إليها فى وله واشتهاء ، والتقت العيون فترجمت عما تخفى الصدور ، فمالت بديعة وأسندت ظهرها إلى صدره ، فخفق قلبه وارتفع نبضه وسرى الدم حارا فى بدنه حتى أحس به يكاد يشوى وجهه . وانبهرت أنفاسه قليلا وضاقت حدقتا عينيه قليلا واضطرب كثيرا ؛ وأحس شعرها الأسود السبط الجميل الذى تمنى يوم جلست أمامه فى السينما أن يمر بيده عليه يلمس خده . فسرت رعدته فى جسمه وارتفعت يده دون أن يتكلف ذلك وراحت تمر على شعرها فى حنان ، فرفعت عينيها المتكسرتين إليه وهى مستلقية على صدره ، واستدارت قليلا كأنما استدارت للقبل ورنت إليه فى دلال ، وزمت شفتيها تدعوه فى خبث إلى اللثم والعناق فلم يستطع أن يقاوم تلك الفتنة المرتمية فى أحضانه ، ولا نداء العينين الواسعتين الساحرتين ، ولا الشفتين المزمومتين المرتجفتين قليلا المغريتين كثيرا ، فأطبق فمه على فمها وضمها إليه فى قسوة ، وغابا عن الوجود فى قبلة طويلة حارة كادت تصهرهما صهرا .

أحس صلاح نشوة واختناقا ، نشوة السكران بخمر القبل واختناق الشهوة

الحبيسة ، وتحركت فيه حيوانيته فضمها إليه بشدة حتى لتكاد ضلوعها تتحطم تحت ضغط ذراعيه ، وجعل يلثمها فى فمها وفى وجنتيها وعينيها وفى كل مكان تصل إليه شفتاه . وأحس أصواتا تقترب فجفل وتركها ، وأرهف أذنيه فبلغهما صوت جلبة قادمة عن بعد ، وابتدأت الجلبة تقترب وتتميز فإذا جماعة من الشبان مقبلين وقد التفوا حول شاب رفع صوته بالغناء ، وكان الشبان يهللون عقب كل مقطع مظهرين رضاهم . واقتربوا من مقعدهما فرموهما بنظراتهم المرتابة المتخابثة ، فأحس صلاح بالخجل يسرى فى أوصاله ، وتحرك ضميره النائم فى أعماق نفسه ، وابتدأ زحفه ليقضى على أحاسيس النشوة التى كانت تمرح فى صدره ليسيطر على الميدان وحده ، وينكل بصلاح خصمه . وانتصر ضميره فقد ماتت أحاسيس النشوة عقب وفود الشبان عليهما ، وخلا له وجه صلاح فصاح فيه : « تبا لك ماذا فعلت ؟ تركت صلاة المغرب لترتكب المنكرات هنا ، فيا بؤسا لك ! ويا للشقاء المنتظرك يوم تكوى شفتاك بمكاو من نار يوم العرض الأكبر ! » . وفر صلاح الهادئ ليحل مكانه صلاح المضطرب أبدا ، الخائف أبدا. واستمر ضميره يخزه وخزا آلم على نفسه من وخز الإبر ، فأحس نفسه تدمى . وأراد أن يتخلص من عذابه فنهض فتبعته بديعة ، وسار وسارت ملتصقة به وتعلقت بذراعه ، فلم يحس نشوة كتلك التى كان يحسها بل كان يحس بها حملا معلقا فى ذراعه يتمنى أن يتزل عنه . وأحس ضيقا وتبرما بها ففكر أكثر من مرة فى أن يصيح فى وجهها طالبا منها أن تنأى عنه بعيدا وأن تغرب عن وجهه ، ولكنه ما كان على إنفاذ بغيته بقادر ، فما زال القلب يشتهيها وإن أقنع نفسه أن ما يمنعه من طردها بقية فيه من حياء ..

استمر صلاح فى صمته وإطراقه حتى بلغا محطة الترام ، فلما أقبل ركبا فلم يجد سوى مقعد خال ، فجلست بديعة ووقف صلاح بعيدا يتنفس الصعداء حمدا ، فلن يضطر إلى الخوض معها فى حديث لا تشتهيه نفسه ، ولن يضطر إلى أن يتكلف الإنصات إليها وعقله شارد ، ولن يتكلف الابتسام ونفسه تدمى . وأطرق صلاح يفكر فابتدأت معركة ضميره ، فالويل له من ضميره .

٩

بلغ الترام محطة الوصول فهبط صلاح وانطلق دون أن يلتفت إلى بديعة أو يودعها ، وأغذ فى السير وهو منطو على نفسه يحس ندما ورهبة ، ندما على ما فرط منه ورهبة من نفسه . إنه يخشى أن تختلى به فتضنيه ، وسار يعجب فى نفسه لنفسه ، فما لها تعذبه إن أطاعها ، وما لها تعذبه إن رفض إطاعتها ؟ لقد اضطهدته لما قرر عدم الخروج للقاء بديعة واستمرت فى تحريضه على الخروج وتزيينه له ، فما بالها الآن تهاجمه بعد أن أطاعها وتنعى عليه ضعفه ؟ واستمر فى عجبه وهو لا يدرى أنه ضحية نفسيه المتكافئتين ، نفسه الشريرة ونفسه الخيرة ، فإذا ما جنح إلى الخير هبت الشريرة لوخزه وتنغيص عيشه ولا تهدأ حتى يطيعها ويرضى شهوتها ، وبعدها تتحرك الخيرة لزجره وتأنيبه فلا ينتهى تعذيبه .

وتذكر فى الطريق دعاء ما كان يجرى له ببال قبل اليوم و لم يتحرك به لسانه أبدا ، فأخذ يردده فى نفسه فى حرارة يحس نارها تصهر صدره . ولأول مرة يحس جلال ذلك الدعاء . فاستمر يردده وهو يصعد الدرج : « اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى ... اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى » .

ودق الباب ففتحته زوجه ، فدخل وأغلقه خلفه ثم طوقها بذراعيه وراح يقبلها فى لهفة وهو يغمغم : « سميرة .. سميرة » . كأنما كان فى سفر طويل عاد منه وخطر داهم يهدد حياته . وأحس كأنه يود أن يفضى إليها بكل شىء وأن

يقص عليها قصة ضعفه ، ولكنه تريث . وتخلصت منه فى رفق وسألته فى ارتياب :

ـــ ما بك الليلة ؟

ـــ لا أدرى ، إنى إليك مشتاق كأنى لم أرك منذ سنين .

ـــ أأعد العشاء ؟

ـــ انتظرى حتى أصلى العشاء .

ودخل حجرته وأخذ يخلع ملابسه ، و لم ترحمه نفسه المهتاجة بل راحت تخزه فسمع صوتا يهتف به من أغوار نفسه : « يا لك من منافق ! كيف سمحت لنفسك أن تضع شفتيك الآثمتين على شفتيها الطاهرتين ؟! وكيف رضيت عن أن تلف ذراعيك الملوثتين بخصرها وأن تلصق صدرك الخبيث بصدرها ؟ يا لعارك ! » . وحاول أن يتخلص من وطأة نفسه فجعل يستغفر الله فى سره ، وعاد الصوت يهتف به ثانية : « اذهب إليها واعترف لها بذنبك واطلب منها الصفح لعلها تصفح ، فقد أسأت إليها وهى لا تدرى » . وهم بأن يخرج من حجرته ليقص عليها قصته ، ولكن صوت عقله رن فى أذنيه : « حذار أن تعترف لها ، إنها امرأة مهما سمت ركبت الغيرة فيها ، فستثير بقصتك شكوكها وتحرك شجونها وتعذبها تعذيبا » . وجال فى ذهنه خاطر ، جال فى ذهنه أن يطلب من الله الصفح ، فانطلق يتوضأ فأسبغ الوضوء ، ثم عاد واستقبل القبلة ورفع يديه يدعو الله فى حرارة ، ولأول مرة يذكر ضعفه على لسانه واستمر يدعو : « اللهم إليك أشكو ضعف نفسى ، رب اغفر لى وتب علىّ إنك أنت التواب الغفور . اللهم أنت ربى لا إلـٰه إلا أنت ، وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت . أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ ،

وأبوء بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » . وطفرت الدموع من عينيه فمسحها بظهر يديه . ثم كبر ووقف يصلى فى خشوع . وجعل يقوم ويسجد فى اطمئنان ، وصلى صلاة لم يصل مثلها قط فما شرد فكره أبدا . وكانت حرارة الآيات التى يرتلها تنبعث من قلبه وتسرى فى صدره ، فكأنما المعصية التى ارتكبها صهرت نفسه وخلصتها من أدرانها إلى حين .

١٠

انقضت أيام وصلاح يتحاشى مقابلة بديعة ، فقد كان على يقين من أنه إذا رآها تحركت شجونه ونكأ جرح قلبه الذى سكن سكون النار تحت الرماد . وكثيرا ما تخايلت له فى يقظته فكان يفكر فيها طويلا ، ثم ينجح أخيرا فى طرد طيفها الزائر . وقد رآها فى نومه مرتين ، مرة محلولة الشعر عارية إلا من غلالة رقيقة مرتمية فى أحضانه تبادله القبلات ، ومرة تقوده إلى طريق موحش مظلم مهجور فأوجس خيفة . وكان قلبه يحاول جاهدا عصر كل يوم أن يقوده إلى الشرفة ليراها ولكنه كان يقاوم مقاومة اليائس المستميت ، وقد نجح حتى الآن فى كبح جماح شهوته فلم يدخل الشرفة أبدا بعد مقابلتهما المشئومة .

وكان قلبه يتوق إلى مقابلتها مصادفة صاعدة أو هابطة أثناء صعود صلاح أو هبوطه فى الدرج ، آملا أن تحرك رؤياها فتنة صدره فيقضى على مقاومته التى شد من أزرها غياب بديعة عن عينيه . ترى لو وقعت عيناه عليها أتخور عزيمته وتذوب مقاومته ؟ إن القلب ليتوق إلى هذا وإن صلاح ليخشاه كل الخشية ، ويدعو الله لن يحفظه وأن يجنبه تجرع ذلك العذاب المرير .

ودخل صلاح حجرته وتناول كتابا راح يقرأ فيه برهة ، ثم أغلقه ووضعه على ركبتيه ، وألقى برأسه إلى الخلف وأسبل عينيه وراح يفكر فيما آل إليه حاله . كان ناعم البال مطمئن النفس يحسب نفسه طودا عظيما لا تزعزعه الأهواء ولا تحركه الشهوات ، فإذا به عقب أول اختبار يجد نفسه خبيثة شريرة ما إن تلوح لها بادرة الإثم حتى ترتمى فى أحضان المعصية ، لا وازع يزعها ولا

ناهي ينهاها . ألا ما أضعف الإنسان !.

ونظر من خلل النافذة المفتوحة فلمح رقعة السماء الزرقاء الصافية الأديم المترامية أبدا الممتدة أبدا ، فأحس رهبة خفيفة تهز نفسه ، فزفر زفرة ممدودة كأنما يزفر خلجة الرهبة التى انطلقت إلى صدره ، ثم غمغم : « اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسي » . وارتد بصره يتفحص الغرفة فوقع على مصحف قريب ، وما إن رآه حتى قفز إلى رأسه خاطر أن يرى فيه طالعه فيعرف ما ينتظره من خير أو شر ، فتناوله فى إجلال وقرأ الفاتحة وهو بين يديه ، ثم فتحه كيفما اتفق وقلبه خافق . وابتدأ يعد سطور الصفحة اليمنى حتى إذا بلغ السطر السابع جعل يقرأ طالعه : « وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ، ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل ، وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله ، قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار » . وما إن بلغ هذا حتى فزع وأراد أن يتهرب من طالعه ، فهتف بصوت بلغ أذنيه واضحا : « لا . لست من أصحاب النار . فلئن كنت قد أخطأت فإن خطئى لم يبلغ حد المعصية فلم أرتكب إحدى الكبائر ، وإن الله يغفر ما دون ذلك . لا ليس هذا طالعى ، لا إنى لا أجعل لله أندادا ، إن طالعى بعد ذلك دون شك . واستمر يقرأ : « أمَّن هو قانت آناء الليل ، ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، قل هو يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولو الألباب » . وما إن أتم ذلك حتى هدأت نفسه وقرت واطمأن باله وصفا ، وراح يؤكد لنفسه أن هذا هو طالعه وهو طالع سعيد حقا .

وأقبل الليل وصلاح جد مسرور ، فقد تصرم النهار و لم يطع أهواءه و لم تضعف عزيمته و لم يستمع إلى قلبه ، ونجح فى كبح جماح نفسه فلم يدخل الشرفة اليوم أيضا ليراها . وكان راضيا عن نفسه كل الرضا فما استلزم كبحها

منه جهدا ، وقد أرجع ذلك إلى أن معدن نفسه ممتاز لا تلتصق به الأصداء ، وإن علته برهة فما أسرع وأيسر أن تزال . لقد خرج من معركته الناشبة بينه وبين شيطانه منتصرا ، وما شك فى نتيجة المعركة يوما ولا ساعة .

ودخل فراشه ونام ، وراح فى سبات عميق تخلله حلم جميل ، فقد رأى بديعة بجسمها اللدن بين أحضانه وهو يضمها فى نشوة وغبطة وسرور . واستيقظ من نومه وتذكر حلمه فاضطرب ، وحاول أن يستأنف نومه دون جدوى فقد سيطرت بديعة على فكره . ودقت ساعة الحائط الثانية وهو يتقلب فى فراشه كما يتقلب على الجمر مضطربا يحس اختناق الشهوة المكبوتة . وراح يراود النوم ولكنه فر ونأى وتنبهت حواسه جميعا ، فترك الفراش واتجه إلى الشرفة ليستنشق الهواء عسى أن تهدأ نفسه القلقة المضطربة .

خرج إلى الشرفة فألفى السكون قد لف كل شيء ، والهدوء مسيطرا على المكان حتى لكأن حفيف النسيم يسمع ، وكان البدر مطلا على الدنيا ينشر ضياءه الفضى فيقلب الليل نهارا ساحرا أخاذا ، فمد بصره فى رهبة وخشوع وراح يدور به فى أرجاء المكان ، حتى استقر على شرفتها فأخذ وازداد اضطرابه ، وراح قلبه يقفز فى صدره وانتشرت فى صدره أحاسيس متباينة ممتزجة ، امتزجت الرغبة بالرهبة ، إنها هناك ... بديعة نفسها بشعرها الأسود الذى عجز القمر عن أن يبدد ليله وعليها غلالة شفافة كتلك التى رآها عليها فى حلمه ، وما إن تذكر حلمه حتى اهتز بدنه جميعه كأنما حمى قد سرت فيه ، وخطر له أن يفر من وجهها ولكن تسمر فى مكانه برغمه وثبتت عيناه عليها لا تتحولان . والتقت العيون فابتدأت مناجاة صامتة هدت كيانهما هذا وأفصحت عما يرغبان . وانقضى الوقت وهما لا يشعران فقد كانا غارقين فى نشوة الأحلام ؛ ولم يشعر صلاح إلا وهو يشير لها طالبا موافاته الآن ، وانطلق



بديعة نفسها بشعرها الأسود الذى عجز القمر عن أن يبدد
ليله وعليها غلالة شفافة كتلك التى رآها عليها فى حلمه .

ليفتح لها باب مسكنه . وسار على أطراف أصابعه وقد أرهفت منه الحواس ، وراح قلبه يدق دقات عنيفة حتى لخشى أن يوقظ زوجه النائمة ، وراحت زفرات سميرة النائمة في هدوء تصك أذنيه صكا وهو ينسل من جوار سريرها ، واستمرت طرقات قلبه تدوى فى أذنيه كأنما مطارق تدق طبلا . وبلغ الباب بعد أن بذل جهدا وفتحه فى احتراس خشية أن ينبعث منه صوت يوقظ زوجه فيفتضح أمره ، وتم فتح الباب أخيرا فوجد بديعة واقفة على باب مسكنها فأشار إليها في وجل . فأقدمت وكانت أثبت منه نفسا وأرسخ قدما ، ودلفت من الباب فأغلقه خلفها في رفق، ثم تناول يدها وقادها إلى غرفة قريبة، ثم ضمها إلى صدره وبعد لحظات ارتميا على مقعد طويل قريب جسما واحدا.

وانتهى كل شيء فانسلت بديعة في خفة إلى مسكنها . وقام صلاح إلى الباب يجر عاره وأغلقه وهو فى ذهول عميق ، وعاد إلى فراشه كسير الفؤاد يتساءل عما فعل ، وارتمى فى سريره كأنما أرتمى فى أتون من نار فجعل يتفزع ويتأوه . وتحرك ضميره وراح يصرخ : « ضيعك شيطانك فما جنيت ؟ لذة عبرت يعقبها حسرة طويلة وعذاب مقيم ، لقد هويت فحق عليك عذاب الحريق » .

واستمر ضميره يخزه وخزا شديدا وهو يتلوى من العذاب ، وضاق صدره فترقرق الدمع فى عينيه فلم يستطع حبسه فجرى على خديه . واستمر فى عذاب حتى ارتفع صوت المؤذن يؤذن بالفجر فأحس كأن صوته نار تصب فى أذنيه ، فوضع أصبعيه فى أذنيه ليصمهما عن سماع الأذان الذى يزيد من أشجانه ولكن صوت المؤذن كان يقرع سمعه فكأنما شواظ من نار سددت إلى قلبه فأحرقته إحراقا ، وارتفعت النار إلى صدره فأضنته . وأحس سميرة تنهض من فراشها فأحس عرق الخجل يتصبب منه حتى يغمره ، واقتربت من سريره فود أن تبتلعه الأرض قبل أن تمسه ، ولكن يد سميرة لمست كتفه فى رفق وهمست في حنان :

ـــ صلاح .. صلاح انهض قد أذن المؤذن .

فهمّ بأن يصيح فيها أن تبتعد عنه وألا تلمسه ، ولكن صوته انحبس و لم يجد مخرجا . فعادت تهزه وتهتف :

ـــ صلاح .. صلاح .. قم . الصلاة خير من النوم .

واقتربت بوجهها من وجهه فلمحت دموعه تجرى على خده ، فهمست فى فزع :

ـــ صلاح ، ما بك ؟ أتبكى ؟.. قم يا حبيبى .

ـــ دعينى .

ـــ ما بك يا حبيبى ؟

ـــ رأيت رؤيا مفزعا ، رأيت نفسى أطرد من الجنة .

ـــ أضغاث أحلام .

ـــ لا يا سميرة ، هتف بى هاتف : « تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار .. تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار » .

فضمته سميرة إلى صدرها فى حنان وقالت :

ـــ لا يا صلاح ، إنها وسوسة الشيطان ، تعوذ بالله منه وقم يا حبيبى .

ونهض صلاح ليغتسل من إثمه ، وانطلق حزينا كئيبا يحتقر نفسه ويعجب لضعفه . وسمع صوتا آتيا من أغوار نفسه كأنه همس ينبعث من مكان سحيق ، ولكنه بلغ أذنيه واضحا قويا وانساب فيهما عذبا نديا :

« كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون » .

فتمتم والدموع تخضب وجهه : « اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك » .



على القبر

(همزات الشياطين)

بلغت الجنازة المقبرة ، فوضع الرجال المأجورون النعش على الأرض وتنفسوا الصعداء حمدا على وضع ذلك الحمل عن كواهلهم ، وانحط الناس على الكراسى المبعثرة هنا وهناك حول القبر وأنفاسهم مبهورة وعرقهم جار . ونظروا إلى القبر الفاغر فاه الكريه ليزدرد فريسته ويغيبه فى جوفه الموحش البغيض إلى الأبد نظرة بلهاء عابرة ، كأنهم لا يقدرون بشاعة ما يرون وكأنهم لا يردون المكان غدا أو بعد غد .

وأخرجوا مناديلهم يجففون بها عرقهم ويروحون على وجوههم ، وبان التبرم والضيق على وجوه الجميع فلولا الحياء ما جاء أحد لتشييع الفقيد الشاب . وما إن وضع النعش على الأرض حتى أسرع أولئك الذين يتعيشون من قبر الناس إلى النعش خفافا لا تختلج فى نفوسهم خلجة ولا يدب فى صدورهم رهبة بل منفرجة أساريرهم بعض الفرجة فقد كان يومهم يوم يمن وإقبال ، فهذا ثالث من يقبرون اليوم ولما ينتصف النهار . وأخذ كبيرهم يفكر فى أثناء عمله ويتذكر على وجه مَن مِن أهل بيته فتح عينيه فى هذا الصباح المبارك الذى كثر فيه الخير ليكلفه بإيقاظه كل يوم ، عسى أن تصبح الأيام يسرا كلها إقبالا كلها . وتذكر اقتراب العيد وهو موسم خير عليه وعلى أمثاله فأهل الموتى يغمرونهم بالفطير والنقود ، فالتمعت عيناه سرورا .

ورفع غطاء النعش وحمل الميت المكفن فى أدراج من حرير ليغيب فى التراب ، وتطلع كبيرهم إلى الغطاء الملفوف به الميت وفحصه بنظره فحص خبير مثمن فطابت نفسه ، فقد كان الغطاء جديدا لم يستعمل بعد . إن الفقيد عزيز على أهله ولا شك ، ولكنه ما كان ليتغطى فى حياته بمثل ذلك الغطاء

الفاخر الذى كفن به . إن أهله لم تنسهم الفجيعة فيه حب الظهور أمام الناس بمظهر الغنى والترف ، فلفوه فى أفخر غطاء فى الدار كانوا قد ادخروه لمثل هذه المناسبات بلا مراء .

وأسرع المقرئون إلى حصير بال وضع بالقرب من فوهة القبر وجلسوا عليه ، وأخذت ألسنتهم تدور فى أفواههم دورانا سريعا وأعجازهم تهتز اهتزازا متتابعا ، وأخذوا فى تلاوة القرآن بصوت يرتفع فى نهاية كل آية وينخفض فى بدايتها ، وكانوا فى تلاوتهم كأطفال يرتلون القرآن فى كتاب . وما كان هذا ليحتاج منهم إلى كبير عناء فقد كانوا يؤدون نفس العمل مرارا وتكرارا صباح مساء ، حتى صاروا آلات صماء لا يفقهون مما يقرءون شيئا . وكان الخاطر الوحيد الذى يحتل فكرهم إذا ما دعوا إلى العمل إن كان هذا يعد عملا ، تكهنهم بمقدار ما سينقدونه على الخدمة الجليلة التى قدموها للفقيد ، ويأخذون فى التفكير فى أى وجه من وجوه الإنفاق العديدة ينفقونه . إنهم وأهليهم فى احتياج إلى أشياء كثيرة ، ولكن حاجة بطونهم أولى بالتقديم فيفكرون فى كم رغيفا يشترون ؟ وما هو الغموس الذى يستحسن أن يأخذوه ؟ ويتذكرون ما أكلوه فى أمسهم حتى لا يأخذوه فى يومهم . ويستمر الطعام يلوح لهم وهم يرتلون القرآن إلى أن ينتهى الدفن بسلام .

وارتفع صوت المقرئين يلقنون الميت : « وستعلم يا عبد الله أن الموت حق ، وأن الجنة والنار حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ... » ، فأفاق الناس قليلا وقطع حبل تفكيرهم ، ولكن سرعان ما أطرقوا ووصلوا ما انقطع من تفكيرهم ثم غاصوا حتى غرقوا فى خضم الآمال والأحلام .

* * *

وفى ناحية من المكان جلس ثلاثة من أصدقاء الفقيد مطرقين إذا رأيتهم

حسبتهم على الفقيد محزونين ، وإذا اطلعت على أفكارهم رأيتهم فى شئونهم يتفكرون وبآمالهم يتعلقون ، كأنما الميت الذى لم يقبر بعد لم يكن مثلهم بالأمس القريب يتعلق بالأحلام ويفرح بالأوهام .

أطرق أحدهم وكان شابا فى مقتبل العمر كالفقيد ، فسبح به الخيال إلى جارته الحسناء فتذكر كيف أطلت عليه ليلة أمس كالبدر المنير ، فأشار لها كما تعود أن يشير طالبا منها أن تقابله فى السابعة من مساء الغد فلم ترد على إشارته وما كان الصد من شيمتها ، فأخذ يشير ويطول ويقصر ، وأخيرا ظن أنها لم تفطن لوجوده فأصدر صوتا خافتا ولكنها لم تلتفت إليه ، فرفع صوتـه بالغناء : « يا جارة الوادى ... » ففرت من النافذة لا تلوى على شىء . فعجب من تصرفها ، فما بال محطة الاستقبال لا ترد على محطة الإرسال اليوم وعهده بها أنها تقف لاستقبال الإشارات ولإرسالها ساعات دون كلل أو نصب . ترى ما دهاها وما أغضبها ؟ لم يفطن إلى شىء فهز كتفيه ، وأدار ظهره ليخرج من الشرفة فرأى نفسه أمام أمه وجها لوجه ، فقد كانت فى الحجرة ترقب ما يحدث . وتذكر موقفه من أمه فكادت الابتسامة تفر من شفتيه وهو بجوار جثمان الفقيد العزيز ، فأسرع ووضع منديله على فمه وخنق تلك الابتسامة الوقحة التى كادت تولد على شفتيه فتفضح دخيلة نفسه . وتململ فى كرسيه وأدار عينيه فى المكان ثم أطرق واستأنف تفكيره فى الجارة الحسناء . لقد تواعدا على اللقاء الليلة وما دار بخلده أن صديقه يموت اليوم . أيحول موت صديقه دون مقابلتها ؟ أينبغى أن يكون فى المأتم قبل الناس جميعا ؟ و لم يحيى أهل الفقيد ليلة مأتمه ؟ أما كان الأجدر بهم أن يقصروا العزاء على الجنازة فيريحوا الناس ويريحوا أنفسهم ؟! إنه لا يقدر على أن يخل بوعده فإن أخل بوعده أغضبها ، فليذهب للقائها فالحى أفضل من الميت ، ولكن ما



فسبح به الخيال إلى جارته الحسناء
فتذكر كيف أطلت عليه أمس كالبدر المنير

يقول أهل الفقيد إن اختفى و لم يظهر فى مأتم صديقه ؟ لا بد من الذهاب هذا هو الواجب وما أثقله من واجب ؛ لا بد من الذهاب إلى المأتم ولا بد من مقابلة حبيبة القلب . فليقابلها أولا وليتوجه إلى المأتم عقب انصرافها وليقل أهل الفقيد ما يقولون ، أفلا يكفيهم أنه لبس رباط رقبة أسود حدادا على الفقيد ، وسار تلك المسافة الطويلة خلف نعشه فى هذا الجو الحار البغيض ؟ إنه أدى الواجب نحوهم وزيادة فليؤد واجب قلبه . وأقنعه منطقه هذا فأخذ يفكر فيما يقول لها وفيما يفعل لإرضائها وكسب ودها .

***

وجلس بجواره الصديق الثانى وكان بدينا ، فبرز أغلب جسمه من الكرسى الجالس عليه وبان الكرسى تحته كدمية من دمى الأطفال . وأطرق يفكر فيما فعله فى الصباح فقد ترك الدار وانطلق إلى السوق ليشترى دجاجتين يطبخ عليهما ملوخية . إنه يحبها ويطبخها ما دامت موجودة أكثر من مرة فى الأسبوع ، وإنه ليطبخها بالدجاج فى أول كل شهر . وراح يذكر ما دار بينه وبين بائع الدجاج من نقاش ، فقد كان الرجل وقحا لا يبيع ولا يشترى إلا بعد أن يسب الدجاج ويلعن بائعيها وآكليها مئات المرات . فما قلب الدجاج بين يديه وما انتهى من اختيار اثنتين حتى سأله عن ثمنهما ، فطلب الرجل ثمنا غاليا ، ثمنا لا يطلب إلا فى أوزتين عتقيتين . فذكر هو ثمنا معقولا ، فما كان من البائع إلا اختطف الدجاجتين من يده بشدة وهو يصيح : « مالكم وأكل الدجاج ، كلوا طعمية ، كلوا فولا نابتا » . تذكر الصديق ذلك وهو جالس بجوار القبر فأحس بدمه يصعد إلى رأسه ووجهه ، وراح يعجب فى نفسه كيف قبل هذا القول من البائع السفيه ، وكيف تركه وانسل دون أن ينبس بكلمة زجر كأنما قد أتى شيئا نكرا ؟ أما كان الأجدر به أن يلقنه درسا لا ينساه ؟ ولكن ما يدريه

أن الرجل كان يقبل منه الزجر دون أن يزود عن نفسه فيتراشقان السباب ، وقد يتطور الأمر بينهما فينشب شجار قد ينتهى بتمزيق ملابسه ، بل قد ينتهى بتمزيق جسمه . وما إن بلغ هذا الحد من التفكير حتى ظهر عليه الضيق . وأراد أن يتخلص من وطأة هذه الأفكار الجاثمة على رأسه فأخذ يفكر فى الدجاج والملوخية المنتظرانه ليلتهمها عقب انتهاء الدفن . إن زوجه الآن فى المطبخ ، وإن رائحة التقلية لتفوح على الجيران معلنة أن هنا موظفا فى أول الشهر . وما إن تذكر التقلية حتى تحلب فمه واختلس نظرة إلى الساعة التى فى معصمه فأيقن من اقتراب وقت الغداء ؛ وتذكر أن فى طريق عودته من المدفن إلى الدار بائع مخلل ممتازا لطالما اشترى منه مخللا كلما مر عليه ، فعزم على أن يشترى منه اليوم عقب انتهاء الدفن الذى طال .

* * *

وغرق الصديق الثالث فى بحر من الأفكار وكان محزونا حقا ، فكان وجهه باسرا وعيناه مسبلتين وخده على يده والزفرات المحزونة الشديدة تنطلق من أنفه عالية مسموعة مخففة بعض الشيء عن ذلك الكرب الذى يضغط على صدره حتى ليحس أنه يكاد يخنقه ويكتم أنفاسه ، وأخذ فى وضع رجل على رجل ثم مالبث أن أنزل الرجل الراكبة ليضع عليها الرجل الأخرى . وما استقر قليلا حتى بدل رجليه فأنزل واحدة وأركب الأخرى ، وما استقر أبدا فكان بادى القلق كثير الاضطراب . كان حزنه لفقد الفقيد عظيما ، فقد مات وفى ذمته خمسة جنيهات لم يسددها بعد ، كان قد استدانها منه على أن يسددها فى أول الشهر عند القبض ، ولكنه قُبض قبل أن يقبض . إنه فى أشد الحاجة إلى هذه الجنيهات فراح يفكر كيف يستردها . أيطلبها من أهل الفقيد صراحة ؟ وإذا طلبها ألا يتهم بقلة الذوق ؟ ومتى يطلبها غدا أو بعد غد أو بعد الأربعين ؟

وإذا طالبهم بالدين وطالبوه بالصك الذى يثبت الدين ولا صك عنده ، فما يكون جوابه ؟ أيقول لهم إنه اعتاد أن يعطيه ويأخذ منه بلا كتابة ؟ وإذا قال لهم ذلك ألا يظنون به الظنون فيورد نفسه موارد الشبهات ؟ و لم لا يظنون أنه هو المدين لا الفقيد إذا كانا قد اعتادا الاستدانة والسداد بلا كتابة أو ما يثبت الدين ؟ أيصل بهم الأمر إلى أن يشكوا فيه ؟ فيه هو الذى كان صديق الفقيد لا يفارقه ؟ من يدريه أنهم لا يرتابون . أمن الأفضل أن يلمح لهم تلميحا فإن فهموا وسددوا كان خيرا ، وإن تغاضوا وتغابوا فليعوضه الله خيرا ؟ ولكن ما ذنبه وما جريرته ؟ و لم يضيع حقه و كل ما جناه أنه فك ضيق الفقيد و لم يطلب منه صكا يثبت حقه . أكان من الواجب أن يطلب صكا ؟ ومن كان يظن أن الشاب القوى المعافى يموت قبل أول الشهر ؟! أيرسل لهم رسولا يطالبهم بالدين حتى لا يقف موقف المطالب الذى يخجله ويجرح إحساسه ؟ ولكن كيف يرسل رسولا إلى أهل صديقه ليطالبهم بدين له ؟ واستمر الصديق الثالث نهبا لأفكاره لا يقر له قرار ولا يستقر على حال .

واستمر الناس فى إطراقهم ينتقل بهم فكرهم من مكان إلى مكان وهم يسبحون فى بحور الخيال . وتم دفن الفقيد وأهيل التراب على قطع الحجارة التى سدت منزل القبر ، وجاء حاملو الماء وأخذوا يرشونه على القبر وصاح أحدهم : « وحدوه » . فأفاق الناس من غشيتهم وهمهموا بصوت فيه نعاس : « لا إلـه إلا الله » . وعلموا أن الدفن قد تم فقاموا عن مقاعدهم ، وانطلق الأصدقاء الثلاثة إلى حيث وقف أهل الميت ووقفوا بجوارهم يتلقون العزاء ، وتم كل شيء وانصرف الناس وما فكر واحد قط أن اليوم يوم الفقيد ، وأن يومه هو فى الغد القريب .

العجلة تدور

عاد مع الليل منهوكا محطما فخلع ملابسه فى تراخ ظاهر ولبس منامته ، ثم تناول عشاءه ، وأحس بأعضائه تسترخى فدخل حجرته واستلقى على مقعد طويل ليريح جسمه المكدود الذى يحن إلى الراحة . وما إن استقر جسمه حتى أحس خدرا لذيذا وركنت كل أعضائه إلى هدوء شامل ، إلا فكره فإنه لم يستسلم للراحة على الرغم مما يعانيه من نصب بل راح يعمل كما يعمل دائما ، وإنه لا يذكر أنه فتر مرة وأراحه بل كان دائما يضنيه ، وإنه ليحسب أنه يعمل حتى فى نومه فإنه ما كاد يغمض عينيه ويغيب عن عالمه ويستسلم للذيذ الرقاد حتى يدخل فى عالم الأحلام فما ينتهى من حلم حتى يبتدئ فى حلم آخر .

وأطفئت الأنوار جميعها و لم يبق فى الشقة إلا نور خافت منبعث من مكان قصى يترك مضيئا طوال الليل ليسترشد به من يقوم بالليل ، ودخل كل حجرته فساد المكان هدوء شامل ، وبقى هو ممددا على مقعده مرخيا لخياله العنان فراح خياله يستعرض ما فعله طوال اليوم ، فرأى نفسه لم يفعل إلا ما يفعله كل يوم ، خروج مع الشمس وعودة مع الليل وكد وتعب وعمل مضن متواصل . إنه ليذكر أنه قارف ذلك العمل القاتل منذ سنين ، فما انقضى العمل وما انتهى الأمل ولا لاح الهدف . ترى هل يضرب على غير هدى ويهدف إلى لا شىء وينطلق فى طريق ليس له نهاية ؟ إنه ليذكر أن آماله يوم نزل إلى ميدان العمل كانت آمالا متواضعة فما كان يطمع فى أكثر مما يضمن له عيشة راضية . فلما حصل على ما يحقق له ما تمنى ، ولما اقترب مما حسبه نهاية أطماعه ، تضخمت آماله وسبحت أحلامه وبعدت أهدافه فانطلق فى أثرها يلهث كما يلهث الكلب المنطلق فى أثر صاحبه الذى ينهب الأرض بسيارته .

إنه كلما طوى جزءا مما يفصله عن هدفه بعد هذا الهدف بمقدار ما طوى ، فلا أرضا قطع ولا أملا حقق ولا نفسه أراح . قد شدته آماله إلى عجلة الزمن وراحت تلهبه بسياطها فيدور كما يدور الثور فى الساقية . لقد خدعته آماله الكواذب فجعلته يغذ فى السير فى إثر سراب . إنه ينطلق منذ سنين وإنه لا يزال ينطلق فما بلغ ما يريحه ولا ما يرضى أحلامه . وإنه سينطلق غدا وبعد غد ولن يصل إلى هدفه أبدا وإن ما يصبو إليه خيال فى خيال ، وإلا فما نهاية هذا السعى المتواصل والتعب المتتابع والتكالب على الدنيا ؟ ما نهاية كل هذا ؟ أجل ما نهايته ؟ وهل يحتاج معرفة نهاية هذا تساؤلا واستفسارا ؟ إنه أمر معروف والخاتمة واحدة متكررة ؛ سيمضى نهارا لا يمضى نهارا على وجه الأرض بعده ، ويقضى ليلا لا يقضى ليلا بعده إلا وهو فى بطن الأرض مغيب ، فتموت آماله بموته وتنقضى أحلامه بانقضائه . ولكن أيموت حقا هو الذى لا يطيق السكون ، والذى إذا مرض لا يطيق الرقاد ، والذى يملأ الدنيا حركة وحياة ينتهى به الأمر إلى أن يرقد ساكنا إلى الأبد ؟ فما أتفه البداية وما أبشع النهاية !.

ولفحه الهواء المتسرب من النافذة المقابلة له فأحس برودة تسرى فى جسمه ، فنهض وأغلق النافذة واتجه إلى سريره وتمدد وأغمض عينيه محاولا أن يغرى ملاك النوم بتطويقه وضمه إلى صدره الحنون ليريحه من أفكاره . لكن أفكاره أخذت تهاجمه فألفى نفسه يفكر برغمه ؛ إنه سيموت وسيصبح بين غمضة عين وانتباهتها ذكرى تروى . إذا ما تحدثوا عنه تحدثوا عن المرحوم فى خشوع ، وإذا ذكر اسمه ترحموا عليه ، ولكن حتام يذكر ؟ إنه سيذكر لبضع سنين ثم تموت ذكراه كما مات فلا يعود يذكره أحد أو يحس إنسان بأنه كان هناك . فما أبشع الدنيا ! أينقضى كما ينقضى حلم قصير دون أن يشعر به

أحد ، أو يسقط وتستمر عجلة الزمن فى دورانها دون أن تحفل بسقوطه ، أو تقف هنيهة لتلتفت إلى ذلك البائس الذى هوى ؟ ولكن متى حفلت عجلة الزمن بالمناكيد الذين تطويهم طيا ؟ إنه ليذكر يوم مات أبوه وكان هذا أول عهده بالموت ، فقد مات فى أول الليل وكانت ليلة حالكة الظلام ، وما كان فى السماء نجم واحد يتلألأ ، فحسب الكون شاركهم حزنهم وارتدى ثياب الحداد مثلهم ، وظن أن النجوم اختفت حزنا مشاطرة لهم فى أتراحهم ، وحسب أن عجلة الزمن قد كفت عن الدوران ، وأن هذا الليل ليس له نهار . ولكن طلع النهار فروّعه طلوعه فما كان يظن أنه يطلع . أتبزغ شمس بعد موت أبيه ؟ ؛ لقد كان يحسب ذلك محالا ، وانطلقت العصافير الساكنة فى الشجرة الكائنة تحت نافذتهم تزقزق كل يوم ، وتنتقل من فنن إلى فنن ، وتنفض أجنحتها الدقيقة فى سرور فما أحست مصاب جيرانها . ودبت الحياة فى كل شىء إلا فى ذلك الجسد العزيز المسجى ، ويا ليتها ما دبت إلا فيه ، وسار كل شىء كما كان يسير فما لبس الكون ثياب الحزن لما ارتدى رداء الليل كما ظن ولكنه لبس ثياب السهرة ، فلما انقضت السهرة بأفراحها وأتراحها وأسرارها وعلانيتها ، خلع الليل ولبس النهار كما تعود أن يفعل كل يوم ، فما شعر الكون بشىء ، ولم يبق إلا الصحاب ليشاطروهم أحزانهم . وانتظروا موافاة الصحاب بعد أن أعلن المصاب الفادح وطال انتظارهم ، ولكن الصحاب كانوا هناك فى الحدائق يلعبون ويشربون ويأكلون ويضحكون ، فقد كان اليوم يوم شم النسيم ، وما خطر المصاب على قلبهم إلا بعد أن عادوا من رحلاتهم فى المساء ففكروا فى العزاء . إنه ليذكر كل هذا كأنما وقع الساعة ، وإنه ليذكر أباه كطيف مر به ، وإنه ليذكر تلك السنين الطوال التى قضاها مع والده قبل أن يمضى كما يذكر قصة قرأها فى كتاب ، أهذه هى

الحياة ؟ فما أشقى الإنسان !

وحاول أن ينام وأن يبعد تلك الخواطر التى احتلت فكره ، وتقلب فى فراشه وأخذ يحاول أن يركز تفكيره فى موضوع آخر ، وكاد ينجح فى أن يوجهه وجهة أخرى ولكن ارتفعت دقات ساعة الحائط فكان رنينها فى أذنه كنعيب الزمن . فألفى نفسه يفكر فيها ويخاطبها بصوت كان يصل إلى أذنيه واضحا على الرغم من أن شفتيه ما تحركتا ولا اختلجتا خلجة : إيه يا ناعيات الزمن ألا تكفى ؟ ولكن لم تكفين ؟ وما يهم وقوفك أو دورانك إذا كانت عجلة الزمن تدور ؟ إيه يا مسكينة ! إنها ستطويك كما تطوينا وإنك مسخرة كما نحن مسخرون وإنك ستنتهين كما سننتهى . أجل ستنتهين فلا تفرحى فإنك تنعين نفسك كما تنعيننا . ولكن ترى أتفهمين ؟ لا أظن فهنيئا لك ويا بؤسا لنا . إننا نعلم النهاية ولكن ما أسرع ما ننساها ونغفل عنها فنتنافس ونتطاحن ، ونتباغض ونتشاحن ، ونتضارب ونتقاتل ، ونمشى على أجداث ضحايانا مزهوين نكاد نبلغ الجبال طولا ، ناسين أننا عما قريب سنصرع ، وفى جوف القبر الموحش سنغيب . ويا ليت القبر هو النهاية فإنه سيندثر على مر السنين كما اندثرنا ، وسنصبح ترابا تذروه الرياح كما أصبح الذين خلوا من أسلافنا ، وإلا أين أجسام البشر من يوم خلق الله الخلق ، أين ذهبت ؟ » .

وأحس رأسه يكاد ينفجر فتقلب كما يتقلب على الجمر ، وتناول الوسادة من تحت رأسه ووضعها فوقه وراح يضغطها بيده كأنما يحاول أن يخمد تلك الأفكار التى أزعجته ، ولكن تنبهت حواسه كلها واستمر فكره يعمل فرفع الوسادة وأعادها سيرتها الأولى تحت رأسه واستلقى على ظهره وثبت عينه فى سقف الغرفة . وجال فى نفسه خاطر ؛ من يدريه لعل حوائط حجرته كانت فى سالف الزمان أجسام أناس مثله كانت لهم آمال كآماله ، وأفكار تؤرقهم

كما تؤرقه أفكاره ، وهواجس تهجس فى صدورهم كما تهجس الخواطر فى صدره ، وآلام تعذبهم كما تعذبه آلامه ، وأفراح تسرهم كما تسره أفراحه . فلئن كانت حوائط حجرته فى يوم من الأيام بشرا يسعى ، إن جسمه سيصير بعد آلاف السنين حجرا ، أو ينقل إلى حقل من الحقول سمادا فيمتص الزرع جسمه ويأكله الناس وفيه منه ما فيه ، كما يأكله هو الآن وفيه منه ما فيه من أجسام من سبقه ، فيا لشقاء الناس يأكل كل سلفه .

واستمر فكره يعذبه ، وأخيرا تعطف ملاك النوم فمس بأنامله الرقيقة جفنه فراح فى سبات عميق ، ولكنه ما لبث أن رأى فيما يرى النائم مكانا فسيحا فخما ما رأى فى الدنيا مثله قد غطى بزرع أخضر بهيج ، وقد تفجرت الأنهار خلاله تفجيرا ، وانتثرت فيه أرائك من بلور مصفى لا يحجب ما خلفه ، وعلى تلك الأرائك أطياف تشع أضواء فضية كأنما كل منها بدر منير .. وكانت الوجوه راضية مطمئنة كلها وضاءة وكلها سعادة . وألفى نفسه على أريكة من الأرائك وبجواره وأمامه أطياف تتطلع إليه فى حنان ، فراح ينقل بصره فيها وقد بان الدهش فى وجهه ، ولكن لم يحس رهبة ولا فزعا فقد كان مطمئنا لمكانه تغمره نشوة وسعادة . ولكنه كان يحس رغبة فى معرفة هؤلاء الذين يشاركونه مجلسه ، فالتفت إليه الطيف الجالس بجواره وسأله :

— من هؤلاء الذين أسعدنى الحظ بمجالستهم ؟

— إننا أرواح تلك الأجساد التي يتكون من بعضها حوائط حجرتك

— أرواح حوائط حجرتى !

— أجل .

— وما جاء بى إلى هنا ؟!

— رأينا ما اعتراك من فزع لما فكرت فى الموت فأشفقنا عليك ، وأردنا أن



وألفى نفسه على أريكة من الأرائك وبجواره
وأمامه أطياف تتطلع إليه فى حنان

نعيد إليك روعك .

ـــ أتود ألا أفزع لذكر الموت ؟!

ـــ ليس الموت بتلك الصورة البشعة التى صورها لك خيالك .

ـــ ليس الموت بتلك الصورة البشعة ؟

ـــ أجل .

ـــ وهل هناك أبشع من الفناء ؟ إننا سنتبخر كما يتبخر الماء ونصبح لا شىء . ستندثر أجسامنا ونضيع فى ذلك الكون العريض .

ـــ وما أجسامكم ؟ هبها اندثرت وضاعت كما تقول فما قيمة كل هذا ؟

ـــ ما قيمة كل هذا ؟! سنصبح لا شىء ، سنصبح كأن لم نكن بالأمس .

ـــ بل ستصبح كل شىء ، ستتحرر من سجن الجسد ، وستهيم فى كل مكان بلا قيد ، وستنفذ إلى الحقائق فى يسر ، ولن تعوقك عوائق المكان ولن يقيدك الزمان بقيوده .

ـــ إنى لا أفهمك .

ـــ ما أيسر ما أحدثك به ، أما خلعت رداء وألقيته ؟

ـــ أجل .

ـــ وهل أحس الرداء شيئا ؟

ـــ وهل كان الرداء يحس ؟

ـــ إن مثل أجسامكم كمثل الرداء ، فإذا ما صعدت الروح إلى عالمنا أصبح الجسد كرداء خلع وألقى . أفتحس شيئا إذا ما مزق الرداء أو أصابه العدم ؟ أتذكر كم من الأردية أبليت ؟ أتعرف ما مآلها وما صارت إليه ؟ لم تهتم بالجسد كل هذا الاهتمام كأنما الجسد هو كل شىء ؟ إذا ما صعدت روحك إلى عالمنا فلن تأبه بجسدك ولن تلتفت إليه ، بل ستشعر براحة لخروجك من

سجنه ولتركك ذلك العالم الحبيس إلى عالم واسع عريض .

— أأفرح لترك عالمنا الضيق ؟ ومن قال إنه ضيق ؟!

— إنه أضيق من سم الخياط كما تقولون ، فإنك لا ترى منه على ضيقه إلا رقعة محدودة ، ولا تعلم من أمره إلا قليلا ، ولا تنفذ بصيرتك إلا إلى ما تلمس من الأشياء ، ولا تعرف من شئونك إلا ما يقع لك فى ساعتك . أما ما يصيبك غدا ، وأما ما ينتظرك من خير وشر ، وأما مآلك وما تصير إليه فهو المجهول الذى تتشوقون إليه وتتمنونه وتتحرقون شوقا إليه . وما أتفه ذلك المجهول لو كنتم تعلمون . إننا هنا نرى أمامنا ماضيكم وحاضركم ومستقبلكم وما كتب لكم . ولكم نشفق عليكم ونضحك منكم أحيانا ، ولما نرى الفزع الذى يصيب أحدكم عندما يقع فى ضيق ، فإنا نرى الفرج منه قريب وهو يائس ساخط يندب حظه ، متبرم بالحياة يحسب أن قد كتب عليه الشقاء . فلو أن بصيرته كانت تنفذ إلى عالم الغد كما تنفذ بصائرنا لما فزع ولا قنط ، ولانطلق فى طريقه المرسوم راضيا حتى تنقضى مدة سجنه الجسدى . ولكم نرثى لكم عندما نرى أحدكم وقد نال فوزا قد شمخ بأنفه ، وحسب الدنيا ما خلقت إلا له فسار مختالا فخورا ، وأغذ ليجمع الدنيا إليه وما رأى أن الهاوية تحت قدميه إذا ما خطا خطوة تردى فيها .

— يا لحقارة الحياة ويا لشقائنا ! لم لا نعيش فى وئام وسلام ما دامت الحياة لهوا وغرورا ؟ لم نسرف فى الأحلام إذا كان مآل هذه الأحلام الذبول ؟ لم نتكالب على الدنيا ونقبل عليها إذا كانت عنا معرضة ، ومنا ساخرة هازئة ، وعلينا ضاحكة مقهقهة ؟ إنها لتغرنا كما غرت من قبلنا ، وإنها ستطوينا كما طوت من سبقنا ، فلم نأمن ونركن إليها ؟ لم لا نحذرها حتى يوافى الأجل ؟

— إنها سنة الحياة ولن تجد لسنة الحياة تبديلا .

— إنى أملك ما يكفينى ، فسأنزوى بعيدا عن معمعة الحياة لأمضى بقية أيامى هانئا سعيدا .

— لن تستطيع ؛ إنك تطلب محالا .

— وما استحالة ذلك ؟

— سيجرفك تيار الحياة وسيلقى بك فى بحرها المتلاطم ، فترضى حينا وتمتعض أحيانا ، وستستمر المعركة بينك وبينها فتصرعها مرة وتصرعك مرات إلى أن تلحق بنا حيث الدعة والسعادة والاطمئنان والهدوء .

واستمر غارقا فى نومه حتى رن رنين المنبه فهب مذعورا وأسرع ليرتدى ملابسه ، وكان ينظر إلى الساعة من وقت إلى آخر خشية أن يتأخر عن عمله وكأنما نسى حلمه وما فكر فيه فى أمسه ، ولما تجهز خرج ليشد إلى عجلة الزمن الدائرة أبدا ، المنطلقة أبدا .

لوجه الله

جلست فاطمة على الأرض وقد ساد القاعة التى تسكنها ودجاجها وعنزتها سكون قاتل وظلام دامس ، ولولا النور الخافت الباهت المنبعث من الذبالة الموضوعة على الفرن والمنعكس على صفحة وجهها السمراء لحسب المكان قبرا مهجورا ؛ فقد كانت العنزة ترقد فى ركن لا يصل إليه الضوء ، وكانت الدجاجات قد استقرت فوق قفص كبير وقد لفت أصابعها فوق جريدة وأغمضت أعينها ، وكانت فاطمة مطرقة ساهمة وقد ارتسم الألم على وجهها وبان الحزن فى عينيها وامتلأ صدرها حقدا وغلا ؛ فقد قتل زوجها منذ أيام وهو عائد من الحقل عند الجسر وإنها لتعرف قاتله ، ولكنها لم ترشد المحققين إليه لأنها تود أن تنتقم لزوجها بنفسها . وأخذت فاطمة تفكر فلم يزدها تفكيرها إلا حزنا ، فإنها امرأة لا أهل لها ولا ولد ، فلو أن لها ولدا لصبرت حتى كبر ثم أغرته بقاتل أبيه فيقتص له منه وينتقم لدمه المهدور . إنه لمما ينغص عيشها أن ترى قاتل زوجها يغدو ويروح تحت بصرها وهى لا تفعل شيئا ولا تحرك ساكنا .

واستمرت فاطمة تفكر وقد طفح المقت على وجهها فضاقت حدقتا عينيها وبرز عظم فكيها وانطبقت شفتاها فى قسوة . إنها لا تطيق الصبر .. وعلام تصبر ؟ قتل زوجها وليس له من يطلب بدمه غيرها ، إنها لن تستريح ولن يهدأ لها عيش حتى ينال القاتل جزاءه وحتى يلاقى حتفه . ولكن ما تفعل امرأة لا ولد لها ولا مال عندها ؟ لو أنها كانت غنية لما استعصى عليها الأمر فإن بضعة جنيهات تدفعها إلى سرحان لكفيلة بإنجاز كل شىء على ما يرام . وتشبثت فاطمة بالفكرة الطارئة ، فليس لها إلا سرحان ، ذلك الرجل الذى يكترى

لقتل الناس . ولكن ما تدفع إليه وهى لا تملك من حطام الدنيا شيئا ، إنها منكودة تعيسة . ومشى إليها اليأس فأحست تبرما ، وقامت تدور فى القاعة لتنفس عن صدرها ما يكربها فاصطدمت رجلها بعنزتها القابعة فى مرقدها فالتمعت فى مخيلتها فكرة أرضتها بعض الرضا . لم لا تبيع عنزتها غدا وتقدم ثمنها إلى سرحان ليقتل لها غريمها ؟ وهل يرضى سرحان أن يقدم على القتل لقاء هذا الأجر التافه ؟ و لم تشأ أن تكدر نفسها فجعلت تعللها بأنه سيقبل . فما الذى يخسره إذا ما قتل لها قاتل زوجها !

وأرادت فاطمة أن تنام ولكن طار النوم وأرهفت منها الحواس وجاشت فى صدرها رغبة قوية لم تستطع لها دفعا . إنها لتود أن تنطلق من فورها لتقابل سرحان ولتقص عليه ما وطنت عليه العزم ولتسمع منه القبول أو الرفض ، فإنها لا تطيق الصبر وهذه الرغبة تقلقها وتؤرقها . وحاولت أن تكبح زمام نفسها وأن تقاوم رغبتها فى الخروج ولكن رغبتها غلبتها . فنهضت واتجهت نحو الباب ، وقبل أن تفتحه خطر لها أن تأخذ عنزتها معها ، فلعل سرحان يقبلها منها الليلة فتحقق أمنيتها ويتم بينهما الاتفاق المنشود . فاتجهت إلى عنزتها وسحبتها من مقودها وفتحت الباب ثم خرجت تضرب فى سواد الليل إلى دار سرحان .

اقتربت فاطمة من دار سرحان فسمعت ضربات قلبها تدوى فى أذنيها ، وأحست رعدة خفيفة تسرى فى بدنها . وهمت بطرق الباب ولكن توقفت يدها لحظة واضطرب نفسها وفكرت فى الأوبة تنتظر الصباح ، ولكن رغبتها شدت من أزرها وهزمت ترددها فدقت الباب دقات ، وانقضت مدة حسبتها فاطمة دهرا.وفتح الباب وظهر رجل صارم النظرات قبيح القسمات قصير القامة نحيل الجسم ، فلما رأى فاطمة قال بصوت أجش :

ــ ماذا تريدين ؟

فاحتبست الكلمات فى حلق فاطمة و لم تدر ما تقول بل دفعت إليه بعنزتها ، فظهر فى وجهه التساؤل فقال :

ــ ما هذا ؟

وسكّن روع فاطمة قليلا وعاد إليها بعض هدوئها ، فقالت فى صوت مضطرب حزين :

ــ جئت إليك أرجو عونك وأطلب إحسانك .

ــ ماذا تريدين ؟

ــ قتل محمود عبد العاطى زوجى وهو عائد من الحقل عند الجسر لمشاجرة شجرت بينهما وليس لى من يأخذ بثأره ، فلم أجد إلا أن ألجأ إليك ولكننى لا أملك إلا هذه العنزة ، فهل لك أن تجبر خاطرى وتقبلها منى ؟

وتطلعت إليه فى لهفة تنتظر ما ينطق به ، فقال فى عبوس :

ــ خذى عنزتك وانصرفى .

فاغرورقت عيناها بالدمع وقالت فى صوت خنقته العبرات :

ــ أترفض لفقرى ؟ والله لو كنت أملك شيئا آخر ما تأخرت عن تقديمه ، فإنى لا أرجو من دنياى إلا قتل محمود .

ــ خذيها وانصرفى .

لقد أصر على الرفض فلم يسعها إلا أن تجهش بالبكاء ، فقد انهار الأمل وضاع الرجاء . وكان سرحان يفحصها فألفى بؤسا وفقرا ، ووقعت عيناه على دموعها المنهمرة على خديها فتحركت فى نفسه عاطفة ما كانت لتتحرك فقال :



وقدم محمود فصوب إليه بندقيته ثم أطلق عليه النار فأرداه

ــ خذى عنزتك وانصرفى يا امرأة فلن آخذ منك شيئا .. أما محمود فإنى سأقتله بدون أجر .. سأقتله لوجه الله .

وانقضى الليل وأقبل النهار ، ومشى الناس إلى الحقول وخرج محمود إلى عمله وأخذت ساعات النهار تمر ، حتى إذا ما مالت الشمس إلى الغروب حمل سرحان بندقيته وانطلق راضى النفس مطمئن الفؤاد ، وسار إلى الحقول وهو يحس نشوة المحرم المنطلق إلى بيت الله . إنه ليشعر بالطمأنينة تشيع فى نفسه وتشرح صدره ، وبلغ مكمنه الذى سيكمن فيه وانتظر غير هياب ولا وجل بل كان يحس غبطة العابد المنزوى فى خلوته ، وقدم محمود فصوب إليه بندقيته ثم أطلق عليه النار فأرداه ..

وكر سرحان عائدا إلى داره مثلوج الصدر ، راضى النفس، ناعم البال، مستريح الضمير ، تشيع الغبطة فى محياه ، فهذه أول مرة فى حياته يقتل فيها لوجه الله .

الدرس الأول

سار محسن فى الطريق الطويلة المفضية إلى الكلية فى تؤدة واتزان ، ومحسن شاب فى العشرين من عمره طويل القامة مفتول العضل أبيض الوجه أزرق العينين — وهو من أهل الدلتا — وقد كانت زرقة عينيه مدار قذع شديد ، فقد عيره زملاؤه بأنه من نسل الفرنسيين ، كبير الأنف واسع الفم تعلوه مهابة ووقار . وبلغ باب الكلية فلمح عم مرجان وقد انفرجت شفتاه فلاحت أسنانه كهلال أبيض فى رقعة وجهه الحالك السواد وكان يرد على تحية الطلاب فى سرور ، فمال محسن نحوه ولما أصبح فى محاذاته لم يسلم عليه كما فعل بعض زملائه بل همس :

— عمتك يا عم مرجان .

فقطب عم مرجان جبينه ، واختفى الهلال الأبيض من وجهه وقال متأففا :

— أوه محسن بيه .. عيب .

فدنا منه وهو يقول :

— قل « اشمعنى » يا عم مرجان .

— لا لا يا محسن بيه .. عيب .

فضحك محسن ضحكة عالية جلجلت فى المكان فطارت فى أثرها المهابة والوقار ، وهما لا يلازمانه إلا إذا كان وحده أو كان فى حضرة إنسان لا يعرفه ، أما إذا قابل صديقا فقل على الوقار السلام ، فهو لا يطيق الصبر على الضحك ولا يكتفى أبدا بالابتسام . ودلف من باب الكلية فبلغ سمعه صوت جلبة وضوضاء فحسب أن الطلبة يتأهبون للإضراب ، وتساءل عما يدعوهم إليه

فلم يجد سببا ولكنه غمغم : « وهل لا بد من سبب للإضراب ؟ لكم أضربنا فى السنوات الثلاث الماضية التى قضيتها فى الكلية بلا سبب أو لأتفه الأسباب » . وأغذ فى السير فقد واتته فرصة كبرى للتهريج ، وبلغ فناء الكلية فألفى لافتات كثيرة معلقة هنا وهناك وقد انقسم الطلبة جماعات جماعات ، فهنا جماعة تستمع إلى خطيب ، وهناك جماعة تهتف ، وثالثة تنصت إلى شاعر من الشعراء . فتذكر فى التو أن أسبوع الانتخابات لاتحاد الجامعة قد بدأ فانفرجت أسارير وجهه ، فإن هذا الأسبوع أحب أيام الجامعة إلى قلبه ، ففيه يطلق لتهريجه العنان وينال من المرشحين كل منال ، وانطلق كما ينطلق إبليس يبحث عن ضحية بين المرشحين .

كان محسن يتوق فى قرارة نفسه إلى أن يخوض غمار معركة الانتخابات وكان يتمنى أن يصبح عضوا فى اتحاد الجامعة ، وقد همّ أكثر من مرة فى السنوات السابقة بأن يرشح نفسه فهو يعلم أنه محبوب وأن الطلبة جميعا أصدقاؤه ، ولكنه على الرغم من تهريجه شديد الحساسة لا يحب أن يهاجمه أحد ، فلو نزل إلى الميدان لكان عرضة لسهام منافسيه . أضف إلى ذلك أنه يعتقد أن فى ترشيحه تجريحا له ، فسيضطر إلى استجداء الأصوات استجداء ، وسيمن عليه من ينتخبونه وهو يمقت الاستجداء والمن . فأقنع نفسه بالابتعاد عن هذه التوافه — كما يسميها — التى لا تستحق إراقة ماء الوجه . كان يتمنى من كل قلبه أن يفوز بعضوية الاتحاد ولكنه كان يخشى مواجهة الصعاب التى تعترضه وتقف فى طريق فوزه بها ، فتنحى كارها وحقد على المرشحين جميعا وإن لم يفطن هو إلى ذلك ، فراح يسخر منهم أجمعين .

وقف محسن عند لافتة كتب عليها « انتخبوا غراب خطيب الثورة » فغمغم : يا للمسكين ! ترى أية ثورة يعني و لم يشهد بعد ثورة ؟ أهى ١٩ ؟

قد كان السيد غراب فى « القماط » . ولكن من يدرى فنحن فى عصر المعجزات ؟ لعل أمه وضعته على منصة عالية يحمس الناس ، فوأوأ وبكى وانتحب فأثر فى جموع الناس ، فانطلقوا مسحورين بعويله ليلاقوا الموت مطمئنين . وفكر فى أن يشاغب غرابا ولكنه تذكر أنه ذرب اللسان وأن أعوانه كثيرون ، فانطلق يبحث عن فريسة أسهل ازدرادا فألفى جماعة تحت لافتة كتب عليها : « انتخبوا ابن الخطيب شاعر الوجدان » . فانفرجت الزاوية اليسرى لشفتيه فى ابتسامة خبث وجال برأسه خاطر : لولا ثقل ظل ابن الخطيب الذى لا يطاق ، ولولا لسانه الخارج أبدا بعد كل كلمة ليبلل شفتيه ، ولولا عصاه الثقيلة الغليظة التى يحملها معه أينما سار لتهبه الوقار — ولا ندرى لم يبحث شاعر الوجدان عن الوقار ، ولكن هكذا شاء الشاعر العظيم — لولا كل هذه المضايقات لكان شاعر الوجدان هدفا طيبا وصيدا سمينا . وانطلق محسن من جماعة إلى جماعة حتى وقع بصره على لافتة جميلة مزركشة كتب عليها بخط مطرز بديع : « انتخبوا جمعة » . ولم يجد بجوار اللافتة جماعة بل لمح شابا ضامر الجسم صغير الحجم جدا حديث عهد (بالبنطلون) القصير يتطلع إلى اللافتة فى فرح وسرور ، فغمغم محسن : « إنه جمعة ولا ريب ، وإنه فى حاجة إلى من يرعاه ، فكيف خطر له أن يرشح نفسه ليرعى مصالح الناس ؟ ولكن لا بأس » . وفرح محسن بصيده فهتف :

— جمعة !

فالتفت الغلام وابتسم ابتسامة ساذجة والتمعت عيناه ببريق الفرح والسرور ، وتطلع إلى القادم الكريم فى اطمئنان وكانت أسارير وجهه تنطق بالشكر والامتنان وإن لم يتحرك لسانه بشىء ، فقد كان القادم أول من وفد عليه ، ولو لم تكن فكرة التهريج قد استولت على لب محسن لعطف على الغلام

ولرق له قلبه ، ولكنه كان مندفعا بكليته إلى تحقيق فكرته فهجم على الغلام باسطا ذراعيه ، ثم ضمه إليه وهو يصيح :

ـــ أهلا جمعة ... أهلا جمعة .

وكأن أبا لاقى وحيده بعد غياب طويل فضمه إلى صدره فى حنان . وأحس جمعة ارتياحا وهو فى أحضان محسن فقد وجد العملاق الذى يؤيده والذى سيأخذ بيده إلى كرسى اتحاد الجامعة العتيد . ومال محسن وحمل جمعة على عاتقه كما تحمل الأم وحيدها الذى تدلله ، وأمسك يديه بيديه وقد بعد ما بين ذراعيه ، وراح يقفز به ويرقص على نغمات هتافه :

ـــ انتخبوا جمعة ، انتخبوا جمعة ، ... انتخبوا جمعة ، جمعة .

وانطلق حتى توسط فناء الكلية وهو يقفز ويرقّص جمعة المحمول على عاتقه ويصيح :

ـــ انتخبوا جمعة ... انتخبوا جمعة .

بلغ صوت محسن آذان الطلبة فتركوا حلقات الخطب والشعر ، وانطلقوا خفافا يضحكون ويلتفون بمهرجهم الأعظم ، وهتف محسن :

ـــ انتخبوا جمعة .

فردد الطلبة جميعا :

ـــ جمعة .... جمعة .

ـــ انتخبوا جمعة .

ـــ جمعة ... جمعة .

فأحس الغلام نشوة عظمى فها هى جموع الطلبة تهتف باسمه . إنها أول مظاهرة تقام له ، وهزه الفرح فامتلأ صدره غبطة ، وكان يحس سرورا عظيما كلما قفز محسن به واطمأن إليه اطمئنان الطفل إلى أمه التى تهدهده وتناغيه ،

ومد بصره فألفى جموعا تهتف باسمه : « جمعة جمعة » . فكان هتافها يدغدغ أذنيه وينسكب فيهما حلوا أخاذا ، وفاض بشره فلم يتمالك نفسه فطفرت من عينه دمعة فرح فأراد أن يكفكفها ولكن يديه كانتا فى يدى محسن . فمال برأسه ومسحها فى كتفه وهو يهتز فرحا ؛ فيا لجمعة السعيد !

* * *

انصرف الطلبة إلى دورهم وانصرف جمعة فرحا بالصداقة التى هبطت عليه فرفعته من طالب حديث مغمور إلى أشهر طالب فى الكلية فى لمحة البصر ، يهتف الجميع باسمه ويلتفون به التفاف الشعب بالزعيم ، انطلق مأخوذا بروعة الاستقبال الحار الذى استقبل به ، وسار نشوان يردد فى نفسه : « جمعة .. جمعة .. انتخبوا جمعة .. » وبلغ الدار ودخل حجرته مسرورا وألقى بكتبه وهو يدور فى الحجرة يكاد يطير من شدة الفرح .

وأقبل الليل ودخل جمعة لينام ولكن لم تغمض له عين ، فقد كانت حواسه مرهفة يتذكر حوادث النهار فى انشراح ، وتمنى أن ينقضى الليل سريعا لينطلق إلى الكلية وليقابل محسن العزيز وليستمع إلى هتاف الطلبة له . إنه ليحن إلى سماع اسمه منطلقا من أفواه الطلبة فيالسحر الهتاف !

وكان فرح محسن عظيما فقد وقع على غلام ما كان يظن أنه سيقع على صيد أسهل منه يوما ، فعلى الرغم من أنه تلقى دروسا كثيرة فى المدارس فإنه لم يتلق بعد الدرس الأول ، إنه لين ألين من العجين وسيكيفه كيف يشاء وسيسخر منه كيفما يحلو له وسيجعله أضحوكة الكلية سنين وسنين . إنه ليعجب كيف أمضى هذا الغلام سنى التعليم الطويلة قبل أن يلتحق بالجامعة ؟! إنه غلام صغير وغر كبير لا يفرق بين الجد والسخرية . لقد صدق أن الطلبة يهتفون له لجدارته بعضوية اتحاد الجامعة فراح يحدثه عن الهتافات فخورا مسرورا ! ولم

يحاول أن يسأل نفسه مرة متى اكتشفوا عبقريته النادرة وكيف علموا بأحقيته للعضوية ، ولكن ماله وهذا ؟ فها هو اسمه يردده الجميع .

وخرج جمعة إلى الكلية مبكرا عامر الصدر بآمال كبار ، وأخذ يبحث عن محسن فى كل مكان فلم يعثر عليه فراح ينتظره فى قلق ، وثبت عينيه على مدخل الكلية ومر الوقت ثقيلا بطيئا ... ولاح محسن أخيرا فأحس جمعة فرحا لظهوره وهم أن يعدو نحوه كما يفعل الأطفال عندما يلمحون بعض من يحبون على بعد ، ولكنه تذكر أنه مرشح لعضوية اتحاد الجامعة فقام وسار على تؤدة مغالبا رغبته وقابل محسن فى وسط الفناء ، وما إن وقعت عينا محسن عليه حتى هتف بصوت كالرعد :

— جمعه !

وفتح ذراعيه وتلقاه فى صدره ، وأشرق وجه الغلام وسار بجوار محسن مسرورا ، وانطلقا من ناحية الإدارة فالتفت محسن إليه وقال :

— إلى أين ؟

— تعال معى لأدفع القسط الثانى .

— هيا .

وسارا ، ولما اقتربا من غرفة المحصل قفزت إلى رأس محسن فكرة فأمسك بذراع جمعة وقال :

— انتظر .

— ماذا ؟

— لماذا تدفع القسط الآن وباق أسبوعان على آخر ميعاد لدفعه ، أبقه فقد نحتاج إلى نقود .

فرد جمعة فى بلاهة :

ـــ نحتاج إلى نقود ؟ نحتاج إلى ...

ـــ أجل .. لا بد من شراء بعض الأصوات .

ـــ شراء بعض الأصوات ؟

ـــ أما سمعت المثل الذى يقول : « أطعم الفم تستحى العين » ؟.

ـــ أجل .

ـــ لو أقمنا حفلة شاى فى الأمريكين مثلا ودعونا الطلبة الأقوياء ، ألا يكون لمثل هذه الدعوة أثر ؟ سيكون لها أجمل الوقع فى نفوسهم .

ـــ وبعد ؟

ـــ لا بد من إقامة حفلة شاى .

فمد جمعة يده فى جيبه وأخرج النقود ودفع بها إلى محسن وهو يقول :

ـــ خذ وافعل ما تراه صالحا .

ـــ لا .. لا آخذ نقودا ولا ألمسها ، دبر أمر نفسك بنفسك . هذا مجرد اقتراح من مخلص لك ، فإن شئت أخذت به وإن شئت تركته .

وأقيم حفل باهر دعى إليه أصدقاء محسن المقربون ، فأكلوا هنيئا وشربوا مريئا ، وانصرفوا وهم يشدون على يد الداعى الكريم يهنئونه بعضوية الاتحاد ، ويغالبون بسمات لو أطلقت حريتها لارتسمت عريضة على وجوههم أو لجلجلت ضحكات ، وانتهى الحفل وقد ذاب القسط الثانى من مصاريف جمعة .

* * *

احتدمت المعركة الانتخابية فى اليوم الرابع فقام خطيب كل مرشح يذكر محاسن مرشحه ، ووقف جمعة ومحسن وأصدقاؤه يرددون هتافاتهم ، والتفت خبيث إلى محسن وهمس : « اذكروا محاسن موتاكم » . فابتسم محسن ولم يجرؤ



احتدمت المعركة الانتخابية فى اليوم الرابع
فقام خطيب كل مرشح يذكر محاسن مرشحه

(همزات الشياطين).

على الخطاب ، فماذا يقول ؟ وجذب جمعة من يده وابتعد به عن الأبصار وقال :

ــ أصبحت الخطب شيئا عتيقا ، قد سئم الناس الخطابة ، نريد تجديدا . ألم تأخذ فى الإعلان أنه كلما كانت طريقة الإعلان جديدة ضمنت عددا أكثر من القراء ؟ قد فكرت لك فى دعاية هائلة ، دعاية ستقلب الكلية رأسا على عقب ، سنعمل دعاية لم يعملها مرشح قبلنا ولن يعملها مرشح بعدنا . لقد أمضيت الأمس جميعه فى إعداد كل شيء . والله ليخيل إلىَّ أنهم سيطلقون على هذا اليوم « يوم جمعة » على الرغم من أنه يوم أربعاء .

ومال على أذنه وأسر له بما أعد فتهللت أسارير جمعة ، وقال له محسن :

ــ سنخلد هذا اليوم فى تاريخ الكلية .. هيا .

وخرج من باب الكلية وجمعة يقفز فرحا وسرورا ، ومرت ساعة والخطباء يخطبون والشعراء يصبون جام شعرهم على الطلبة المساكين . وارتفع صوت مزمار وطبول ، واقتربت الأصوات حتى غطت على أصوات الخطباء ، وخيل للجميع أن الطبل البلدى يتجه صوب الكلية فتطلعوا نحو الباب . ولم يطل انتظارهم فقد دخل من الباب رجل معمم ينفخ فى مزمار وبجواره رجلان يدقان على نقرزان وخلفهم محسن يجذب حمارا ركب عليه جمعة وقد لبس ملابس الهنود الحمر ووجهه إلى ذيل الحمار وظهره إلى رقبته وكان على رأسه ريش طويل وراح يتلفت إلى الطلبة مسرورا . فأسرع الجميع يضحكون ، ونزل الخطباء وأسرع المرشحون ليحقّوا جميعا بالموكب العجيب ، وارتفع صوت محسن عاليا :

ــ انتخبوا جمعة .

فردد الجميع :

ـــ جمعة ... جمعة .

وعاد محسن يهتف :

ـــ انتخبوا جمعة .

ولكن همسا كان قد سرى بين الطلبة فراحوا يصفقون ويرددون :

ـــ العب يا جمعة .. العب يا جمعة .

واستمر الضجيج والعجيج ، وراح هذا يجذب ذيل الحمار وآخر يحاول أن يركب أمام جمعة ، وثالث يعبث فى الريش العالى الذى يزين رأسه ، وأخيرا عاد الموكب من حيث أتى يحمل جمعة العزيز .

* * *

وجاء اليوم الفصل فوقف المرشحون عند باب لجنة الانتخابات ينظرون إلى الداخلين نظرة استجداء ، وأقبل محسن ونظر إلى جمعة وهو يدخل وكور له يده وراح يهزها ويبتسم . واختفى محسن عن أعين المرشحين وتناول ورقة مكتوبا فيها أسماء المرشحين ليشطب أسماء الذين لا يرغب فيهم ، فتناول قلمه وشطب أول ما شطب اسم جمعة العزيز ، وخرج يبتسم لجمعة ويؤكد له أن النجاح مضمون فالجميع ينتخبونه .

وظهرت نتيجة الانتخابات ونال جمعة صوتا واحدا ، وهو يعرف جيدا صاحب هذا الصوت ، فقد كان هو جمعة نفسه ، وأقبل محسن عقب إعلان النتيجة وقال له :

ـــ أرأيت ؟ إن هذا الصوت صوتى .

فنظر إليه جمعة نظرة مقت ، ولعلها أول نظرة مقت نظرها فى حياته . وأدار ظهره له وانصرف مطأطئ البصر حزينا ، فقد شرب أول كأس وتلقى أول درس .





مشى الظلام إلى المدينة فمشى الهلع إلى القلوب ، فإن الناس باتوا يخشون الليل ويوجسون منه خيفة ويتمنون انقضاءه ، فكلما ولى ليل كتب للناس عمر جديد . فإن قاذفات الموت ومجلبات الدمار لتحلق فى سماء القاهرة فى سكون الليل فتهتك ستوره وتفزع اللاجئين إلى صدر انوم الحنون ، ثم تلقى الدمار إلقاء وتنثر الفناء نثرا .

ونشر الليل ألويته فساد المدينة وجوم ، وأقفرت الطرق وراح الذين تأخروا فى الأوبة إلى دورهم يتحسسون الحوائط يتلمسون طريقهم مخترقين طيات الظلام التى تراكمت بعضها فوق بعض ، فقد خبت جميع المصابيح التى كانت تهديهم ، وأسدلت على النوافذ الستور ، فحجبت النور ومنعته من أن يتسرب منه بصيص يرشد السائرين إلى السبيل .

وراحت أم تقطع الطريق بين النافذة وبئر السلم صاعدة هابطة حانقة متبرمة خائفة متشوقة تكاد الدموع تطفر من مآقيها ، فإن ابنها الوحيد لم يعد وقد انقضى من الليل شطره ؛ وأخشى ما تخشاه أن ينطلق صوت النذير ثم تلقى أبالسة السماء حملها وابنها بعيد عن أحضانها لا تدرى أكتبت له السلامة أم ذهب مع الذاهبين ؟ وبلغت النافذة فأطلت منها وحاولت أن تخترق ببصرها حجب الظلام ولكن ارتد إليها بصرها وهو كسير ، فما رأت إلا سوادا فى سواد ، فانقبض صدرها وسالت دمعة على خدها ، ثم رفعت رأسها إلى السماء تلتمس من الله ستره ، فلم تتمتم بدعاء ولم تتحرك شفتاها ولكن أحست حرارة قلبها تنتشر فى صدرها . واستمرت على ذلك برهة ، وبلغ سمعها أزيز خفيض حسبته صوت طائرة مغيرة ففزعت وأرهفت منها الحواس وهرولت



ولكنها أرادت أن تظهر لابنها غضبها فعبست وقطبت جبينها .

إلى بئر السلم تنظر لعلها تجد ابنها صاعدا فيعيد إلى النفس الخائفة المعذبة هدوءها . ولكنه لم يعد و لم يرحم قلب أمه ، فأحست روحها تذوب وقواها تخور فجلست على الدرج وقد أسندت رأسها إلى حديد الدرابزين تنظر من خلله ، تنتظر أوبة الغائب الذى لا يحس أن قلبا به مشغول وعليه ملهوف

ومر الوقت ثقيلا بطيئا ، وسمعت وقع أقدام صغيرة فاضطربت ، وازداد قلبها خفقانا وهبت منتصبة ، ثم تدلت من فوق الدرابزين تنظر فلمحت ابنها الصبى صاعدا فشعرت بالطمأنينة تشيع فى صدرها وانبسطت أسارير وجهها وتهللت ، ولكنها أرادت أن تظهر لابنها غضبها فعبست وقطبت جبينها فبان عليها الغضب وإن كانت الراحة قد سكنت قلبها . وبلغ الابن مكان أمه فابتسم قلبها وإن ظلت على عبوسها ، وقالت فى صوت حاولت أن يوحى بالزجر والغضب :

ـــ ما هذا الغياب يا رشاد ؟

فقال معتذرا :

ـــ قابلت صديقا لم أقابله من سنين فأخذنا الحديث .

فدخلت الأم شقتها وهى متكلفة عدم الرضا ، ودخل رشاد حجرته وخلع ملابسه ، ثم خرج فوجد الطعام معدا فدعا أمه لتأكل معه ، فقالت له فى اقتضاب إن ميعاد عشائها قد فات ولا تستطيع أن تأكل وتنام . ثم ذهبت إلى حجرة بعيدة وجلست صامتة فى ركن بعيد .

وتناول رشاد عشاءه ، ثم انطلق إلى فراشه ودس جسمه النحيل فيه ، ولم ينقض كثير وقت حتى ارتفع غطيطه . فقامت أمه وسارت على أطراف أصابعها ودلفت من باب حجرته ونظرت إلى وجهه فى وله ، وانحنت عليه واشتاقت إلى أن تطبع على وجنته قبلة ، ولكنها أحجمت خشية أن توقظ

الحبيب ، فمدت يدها فى رفق وسوت شعره وأبعدته عن عينيه ، ثم سحبت عليه الغطاء فى هدوء وانسلت لتنام .

ولف السكون الكون وركن الناس إلى النوم ، وما استراحوا من آمالهم وآلامهم حتى انطلقت أصوات زمارات الإنذار تهتك السكون وتخلع القلوب . فهب النُّوَّم من نومهم مذعورين وانطلقوا مفزوعين كل يفر بنفسه وينجو بجلده لا يفكر فى سواه . وهرولوا جميعا فما درى أحدهم ما ارتدى ولا ما حمل ، وأخذ الناس على الدرج يتدافعون كل يبغى الوصول إلى المخبأ الأمين ليطمئن على حياته .

وهبت أم رشاد من نومها مذهولة مذعورة ، وجرت بغريزتها إلى طفلها وأنحنت فوقه وقد نشرت ذراعيها لتحميه بجسمها إذا ما خر عليهما السقف ، وانتشلت رشاد من فراشه ، فلما استوى على قدميه لفته فى ثيابه وضمته إليها وخرجت تضرب به فى الظلام اللجى ، فلما بلغت الدرج وابتدأت النزول فيه ، وجدت أناسا يتزاحمون ، فجعلت تدفع الهابطين وتمرق برشاد فى خفة حتى بلغت مخبأها .

وساد المكان سكون قاتل ، ثم سمع دوى انفجارات متتابعة فبان الرعب والذعر فى وجوه الناس وابتدءوا يتهامسون ، ثم ارتفع همسهم حتى صار صخبا عاليا غطى على أصوات الانفجارات المدوية ، وطلب أناس من الناس السكون فسكنوا قليلا ثم ما لبثوا أن عادوا سيرتهم الأولى .

وأطلقت زمارات الأمان فأضيئت الأنوار ، وخرج الناس من مخابئهم مطمئنين يسيرون فى هدوء لا يتدافعون ولا يتزاحمون .

وانقضت ليالى فى فزع وهول ، وسقط رشاد مريضا فجعلت أمه تمرضه وهى تهاب الليل وترتجف إذا ما تذكرت زمارات الإنذار . فماذا تفعل إذا ما

فجأها الصوت البغيض ورشاد لا يقوى على السير ؟ ومرت ليالى فى هدوء فاستراح الناس وتمتعوا بلذيذ النوم ، ولكن أم رشاد ظلت مسهدة لا ينطبق لها جفن ، فقد ثقل المرض على ابنها الوحيد فأسبل جفنيه وغاب عن الوجود .

وجلست أم رشاد فى جوف الليل بجوار ابنها الذى يجود بأنفاسه تسح الدموع ، وانطلق صوت زمارات الإنذار يعكر السكون ويهيج الشجون ، فهبت الأم واختطفت ابنها وحملته وأسرعت به تفر من الموت الذى يتأرجح فوق الرءوس .

وانتهت الغارة بسلام وعادت الأم ووضعت رشاد فى فراشه وهو غائب عن الوجود ، وراحت تمرضه وتدلك له يده الباردة لعل حرارة يدها تنتقل إليه ، ولكن ما انقضت ساعات حتى كان الطفل العزيز قد مات .

وأقبل الليل فلم تفزع أم رشاد لإقباله ولم تحفل لمقدمه ، فلم تعد تهابه أو تخشاه . فليقبل بما شاء فقد ذهب الذى كانت تخشى عليه ، ودخلت فراشها ونامت حزينة كسيرة الفؤاد وانطلقت زمارات الإنذار فما هبت من نومها وما انخلع قلبها رعبا بل سالت دموعها على خدها ، ثم أطبقت عينيها لتستأنف نومها بين الأصوات المدوية فلم تعد الغارات تفزعها ، وما عاد يهزها انطباق السماء على الأرض .

البحث عن قصة

حركة دائبة وباب يفتح ويغلق ثم يفتح ليغلق ، وأناس يدخلون وأناس يخرجون ، وعلى هذا الباب قطعة نحاسية مستطيلة حفر عليها بخط ديوانى جميل : « رئيس التحرير » . ودفع فراش نوبى الباب بشدة فظهر فى الصدر مكتب طويل فوقه أوراق كثيرة مبعثرة ، وخلف المكتب شاب بدين فى مؤخر رأسه الأصلع بضع شعرات يجذبها كلما صاح ، وهو دائما صائح صاخب هذا الصباح ، فلم يبق على صدور مجلة الكرباج إلا يومان ، يومان فقط ولما ينته بعد جميع المحررين من تقديم موضوعاتهم . وارتفع صياح رئيس التحرير ، وراح صوته يرن فى المكان يصرخ ويتوعد ويثور وينذر ، ثم ابتدأ الصوت يخفت حتى تلاشى فتنفس المحررون والسعاة الصعداء ؛ فقد انتهت مظاهرة الأسبوع وتمت مواد العدد الجديد فى أمان . ولكن لم يدم اطمئنانهم طويلا فما لبث أن رن جرس الردهة الخارجية رنينا متواصلا وارتفع صوت رئيس التحرير حتى طغى على رنين الجرس ، فانكمش المحررون فى أماكنهم وأخذوا يتلفتون بعضهم إلى بعض يتساءلون فيما بينهم : « من ؟ » . وكانت « من ؟ » هذه كافية بينهم للدلالة على كل شىء ، كانت تقوم مقام جملة طويلة معناها : « من المنكود الذى لم يقدم بعد ما طلب منه ؟ » . فأشار حسنى بأصبعه إلى صدره ونكس رأسه بحركة تمثيلية تعبر عن المذلة والمسكنة فضحك الرفقاء . ودخل الفراش النوبى يهرول وقبل أن يحرك شفتيه قال له حسنى على الفور :

ـــ حاضر .. ذاهب إليه حالا .

فحملق فيه الفراش مذهولا كأنما أتى حسنى أمرا عجيبا خارقا ، فضحك الرفاق ، وانطلق حسنى إلى غرفة رئيس التحرير وفتح بابها برفق ودخل يقدم

رجلا ويؤخر أخرى ، وقبل أن يلقى التحية صاح رئيس التحرير فيه :

ــ أين القصة ؟ أين قصة هذا العدد ؟

فقال حسنى متلعثما :

ــ لم أنته منها بعد .

فجذب رئيس التحرير الشعرات اليتيمة المسكينة النابتة فى صحراء رأسه الجرداء جذبة قوية وصاح :

ــ ما هذا يا حسنى افندى ؟ لم تنته منها و لم يبق سوى يومين اثنين ، لا .. هذا كثير .. كثير جدا .

ــ سأقدمها غدا .

ــ دائما غدا ، لو كان هذا الغد جملا لبرك .

ــ غدا صباحا .

ــ سنرى يا سيد حسنى .

وهم حسنى بالانصراف ولكن رئيس التحرير صاح به :

ــ حسنى أفندى !

فثبت حسنى فى مكانه وقال :

ــ افندم ؟

ــ لا أريدها كقصة العدد الفائت ؟

ــ وما لها قصة العدد الفائت ؟

ــ إنى لا أميل إلى هذا النوع من القصص ، أو بوضع أصح إن جمهورى لا يروقه هذا النوع .

ــ ولمه ؟

ــ لأنه لا يحوى حبكة قصصية ولا يعتمد على المواقف العنيفة التى تثير الجمهور وتلعب بعواطفه .

— إنه نوع تحليلى هادئ .

— قلت لك إن هذا النوع لا يرضى قراءنا فهو لا يرضينى .

فظهر الضيق على وجه حسنى وأحس كبرياءه يطعن أمامه فقال :

— ولكنه يرضى الفن ويرضينى .

فصاح رئيس التحرير :

— دائما تتمحكون بالفن ، مسكين هذا الفن الذى نحتمى به كلما أخفقنا . اعلم أنه لا يهمنى ما يرضيك وما يرضى الفن ، إن كل ما أبغى هو تقديم ما يرضى عنه جمهورنا .

— أى جمهور ؟

— جمهورنا الذى يدفع قروشه ليتسلى لا ليتعب فكره فى متابعة صورك الغامضة وعقدك النفسية . جمهورنا الذى لا يهضم إلا الخفيف من الأفكار والذى يقرأ فى الترام وعلى شاطئ البحر ليتسلى ويقطع الوقت ، وفى الفراش ليجلب النوم . اكتب يا حسنى قصة مثيرة ، غرام عنيف ، خيانة وقتل ، انتقام مروع يهز المشاعر ويجعل صدور القراء كمرجل يفور ، فضيحة تهزهم وتسلب لبهم وتستولى على أفئدتهم فتجعلهم بفنك يتغنون ، وبمقدرتك القصصية يتحدثون .. أتسمع ؟

— أسمع للأسف الشديد . إن ما تطلب هو نوع تافه من أنواع القصص ، بل هو أتفهها جميعا . وإنى أربأ بنفسى أن أهبط إلى هذا المستوى أو أكتب فى هذا النوع .

— يا مسكين إن هذا النوع يلاقى رواجا وإقبالا ، فدع فنك واكتب ما يرضى الجمهور .

— إن ما تطلب منى يتجافى وطبعى ، فكيف أكتب فضيحة وأنا أمقت

الفضائح ، أو أقتل قتيلا وأنا لا أطيق رؤية قتيل ولو فى قصة . الحياة ملأى بالصور البهيجة ، فلم لا أنقل إلى قرائك ما فى الحياة من جمال ؟ لم لا أشرح صدورهم بدل أن أقبضها ؟ لم لا أسعدهم بدل أن أشقيهم ؟

فضاق صدر رئيس التحرير فصاح فيه :

ـــ لن أقبلها منك إلا قصة مثيرة تهز المشاعر وتستولى على الألباب .

ـــ سأحاول وأمرى إلى الله .

ـــ غدا صباحا يا حسنى وإلا ...

ـــ لا لزوم لإلا هذه ، سأقدمها غدا صباحا قصة مثيرة وعلى رأسك دم ضحاياها .

وانصرف حسنى إلى مكتبه وأخرج ورقا وتناول قلما ، وسرح خياله منقبا عن قصة عنيفة مثيرة ولكن لم يفتح الله عليه بشىء ، فراح يرسم خطوطا على الورق وجعل يراود خياله على التحليق فى عالم الفضائح ، ويحاول أن يتذكر مأساة سمع بها أو قرأ عنها لينسج على منوالها ولكن أغلق عليه فقد كان خياله اليوم مهيض الجناح لا يستطيع التحليق ، فأخذ يحاور خياله كما تعود أن يحاوره كلما فترت همته عن أن يتفتح أمام عينيه موضوع قصة يكتبها . وكان الحوار يدور دائما فى داخل نفسه وهو مطرق صامت ، إذا رأيته حسبته نعسان ألقى برأسه ليستريح بينا تكون الحركة دائبة فى نفسه ، والحوار يشتد ويلين ، وقد يبلغ درجات الفورة والعنف فقال لخياله وهو يحاوره :

ـــ أتتخلى عنى اليوم ؟

ـــ وما تريد منى أن أفعل ؟

ـــ أن تسعفنى بمأساة دامية .

ـــ أمقت المآسى ولا أحب ذكرها .

ـــ أما سمعت كلام رئيس التحرير ؟

ـــ دعنا من رئيس التحرير ؟

ـــ كيف لا أفكر فى رئيس التحرير ، فهلا تود أن تعيش ؟!

ـــ هذا أمر يتعلق بك .

ـــ ويتعلق بك .

ـــ لا .. إنى أعيش وأحلق فى عوالمى الحبيبة سواء أرضى رئيس التحرير أم غضب .

ـــ كيف تعيش بدونى ؟ أنت تبع لى فإن سعدت حلقت أنت فى عالمك الوردى ، وإن شقيت تخبطت فى دياجير عوالم الحزن البغيضة .

ـــ أما أنتشلتك من عالمك الكريه مرارا وجعلتك تحلق معى فى أجواء من الجمال الحبيب ؟ أما سموت بك عن البشر وجعلتك كالملائكة ترتفع لا يقف دون ارتفاعك حائل ولا يمنعك عما تبغى مانع ؟

ـــ لطالما حلقت معك ، ولطالما شعرت براحة وسعادة واطمئنان ، ولكن ما كانت هذه الراحة لتدوم فما كنت ألبث أن أهوى من عالمك إلى عالمى فأجد أنى أجد فى أثر سراب . لطالما تناولت على موائدك ما لذ وطاب أثناء جوعى ولكن طعامك الفاخر ما كان ليملأ بطنى ، ولطالما ارتديت أفخر الثياب وخطرت كما تخطر العروس ولكن ملابس عالمك ما كانت لتستر جسمى ، ولطالما قابلت عندك من أحب ورشفت من ثغورهن الرضاب ولكن تلك القبل فى عالم الأوهام ما كانت لتطفئ شوقى ، ولطالما انتقمت من أعدائى ونكلت بهم فى ساحتك حتى جاءوا أذلة صاغرين ولكن هذا الانتقام ما شفى غليلى ولا جعل أعدائى يأتون ساجدين ، ولكم جعلتنى ألطم فى عالمك رئيس التحرير ولكم نال منى هنا رئيس التحرير ! بالله هيا لقد خضنا فى حديث لا طائل تحته ، ولن

يرضى رئيس التحرير .

ــ وما أفعل ؟

ــ أسعفنى ولك علىّ ألا أكلفك مشقة طوال الأسبوع .

ــ سأحاول أن أبحث عن فاجعة ، ولكن هذه المرة فقط .

ــ أعدك بهذا .

ــ اتفقنا .

انطلق خيال حسنى ، ولبث حسنى مدة كالثوب الملقى لا يبدى حراكا ولا تثور فى نفسه الأحاسيس ، ثم ظهر فى وجهه حركة حياة وانتعاش فقد عاد إليه خياله يصيح :

ــ وجدتها .. وجدتها .

ــ ما هى ؟. ما هى ؟.

ــ الفضيحة التى تبحث عنها .

ــ أعلم أنها الفضيحة التى أبحث عنها ، ما هى ؟

ــ زوج سعيد يعيش مع زوجه عيشة هانئة وهو يثق فيها كل الثقة ، وفى يوم من الأيام يعثر مصادفة على رسائل مرسلة إليها من عشيقها يبثها لواعج شوقه ويذكر فيها ما يشير إلى الخطيئة ، فيثور الزوج ولكنه يكتم ثورته ويأخذ فى مراقبة داره ، حتى إذا ما اختلى العاشقان الآثمان فاجأهما وأطلق عليهما الرصاص .

ــ أهذه هى الفضيحة التى هزتك طربا فجئت تصيح : « وجدتها .. وجدتها » كأنك أرشميدس العصر والأوان . ما حسبتك سقيما إلى هذا الحد قط . لطالما كتب الكتاب فى هذا الموضوع حتى صار مهلهلا لا يستحق الكتابة فيه .

ــ ليست العبرة بالموضوع فكم من مرة سمعتك تقول إن العبرة بالمعالجة ، تحريك الشخوص ، إبراز الشخصيات وتميزها .

ــ تحريك الشخوص أو سفك دمائها !؟.

ــ لا تسخر بى بربك . ألم يطلب رئيس التحرير سفك الدماء إرضاء لجمهوره المتعطش للدماء ؟ فليس الذنب ذنبى .

ــ وكيف يكتب ختام هذه المأساة ؟ أيطلق الرجل الرصاص وهو صامت هادىء ، أم يلقى على الآثمين محاضرة طويلة يستصرخ فيها السماء ويستنزل اللعنات ويرغى ويزبد منددا بالسفلة الأوغاد ؟

ــ لا بد من الخطبة الرنانة التى يفوق دويها دوى الرصاص الذى سينطلق عما قريب .

ــ ما أقول فى هذه الخطبة وأنا لا أجيد صياغة العبر ولا انتقاء الكلمات الرنانة التى تجعل الدهماء يمصمصون شفاههم إعجابا كلما قرأوها ؟

ــ أوه ! أثقلت علىّ اليوم . ألا تعرف كيف تقول : « يا للكرامة المهدورة ويا للشرف المسلوب ! طعنتمانى فى الصميم ويا ليت طعنتكما أصابت فىّ مقتلا فأردتنى صريعا . ولكنها تركت جرحا ينزف قيحا وصديدا . إن أنفى لن يشم بعد اليوم إلا رائحة الخيانة ، وإن عينىَّ لن تريا بعد اليوم إلا صور الخيانة ، وإن أذنى سيرن فيهما دواما رنين ضحكاتكما الآثمة ، ولن يمحو صوت الرصاص الذى سينطلق من مسدسى بعد حين صدى ضحكاتكما . يا لى من بائس مسكين ! يا رب السماء اشهد ؛ إنى أغسل عارى بدمائهما ... ماذا أتضحك ؟

ــ وهل يسعنى إلا أن أضحك ، من أين لك هذا وما وقفنا مثل هذا الموقف أبدا ؟

ــ إنى أتمثل .

ــ وبمن تتمثل .

ــ ما أكثر من نتمثل بهم فى عصر من كتاب التهويلات ، ألا تذكر ذلك الممثل المؤلف المخرج وما يعرض من فواجع دامية مفتعلة حتى نجح فى أن يفسد أذواق الجمهور ؟ تمثل به فهو يكتب قصصه بدماء أبطاله . استعر قلمه البتار الذى يخلف وراءه من القتلى والجرحى أكثر مما يخلف وراءه جيش محارب مزود بالمدافع والدبابات .

ــ لا والله لن أكتب على طريقته ولو طردنى رئيس التحرير . أتطلب منى أن أصبح كما يصبح مستعملا تلك الكلمات الجوفاء الرنانة التى يقشعر منها بدنى ويتصبب بسببها عرق الخجل منى ؟ والله إنى لأشفق على ذلك المؤلف المسكين كلما فكرت فى أنه قد يحدث أن يعاد عرض إحدى قصصه بعد حقبة طويلة كطور من أطوار التمثيل . إن ضحكات السخرية والأزدراء التى ستجلجل فى جنبات صالة العرض لترن فى أذنى الآن ، وإنى لأذكر كلما تذكرته ذلك الشريط السينمائى القصير الذى عرض علينا يوما عارضا تطور التمثيل فى أوروبا ، فرأينا كيف كان الممثلون يتكلفون فى حركاتهم ويبالغون فى إشاراتهم ، فإذا قابل الحبيب الحبيبة قدم إليها الورود بطريقة تضحك الثكلى ، ثم ركع وقبل طرف ردائها ، ثم شكا وبكى ونوح وهو راكع أمامها ، وأخذت يده اليمنى تلمس قلبه ثم تطير فى الهواء ثم تعود لتلمس قلبه . وعلى الرغم من أن القطعة التى كانت تمثل مأساة دامية فإن ضحكات الهزء والسخرية كانت تهز جنبات صالة العرض هزا ، فلن يكون مصير صاحبنا إلا هذا المصير .

ــ هذا هو النوع الذى يطلبه رئيس التحرير ويطلبه الجمهور .

ــ لا يهمنى رئيس التحرير ولا الجمهور .

ـــ حسنا تفعل ، هذا ما قلته لك أولا فوداعا .

ـــ لا .. لا انتظر ، بل يهمنى رئيس التحرير ويهمنى الجمهور ، فإنى أريد أن أعيش ولكن لا أريد أن أكتب مثل هذه المآسى ، هلا أسعفتنى بموضوع آخر ؟

ـــ إنى متعب الآن فلن أقدر على فعل شيء ، فكأنما أحمال الدنيا قد وضعت فوقى وكأنما أربطة الدنيا قد شدت وثاقى .

ـــ سأدعك الآن تستريح . يظهر أنك متأثر بصاحبنا فتميل إلى المبالغة فى التعبير ، فأرجوك ألا تتمثل به بعد الآن أبدا .

وطوى حسنى الورقة المبسوطة أمامه ، وفتح درج المكتب وأخرج رزمة أوراق موضوعة بين دفتى جريدة قديمة وضعها تحت إبطه ونهض ، ثم انطلق تاركا دار المجلة . وما إن دلف من باب العمارة حتى لفحته نسمة لطيفة أنعشته . وسار فى الطريق قليلا وكان قد عزم على ألا يفكر فى أمر القصة إلى أن تهدأ أعصابه ويستريح خياله المكدود ، ولكنه ألفى نفسه يفكر فيها برغمه فراح يغمغم : « لو لم يطلب منى رئيس التحرير قصة مروعة لكان الأمر سهلا ، فما أيسر كتابة قصة غرام ، فما كان علىّ إلا أن أبعث ببطل قصتى إلى مرقص من المراقص فيتعرف هناك بفتاة هيفاء ذهبية الشعر حلوة اللفتات مرحة الأعطاف ، وما كان علىّ إلا أن أقتفى آثار القصاص المحدثين فأسمعهما السيمفونية الثامنة لبتهوفن والدانوب الأزرق ، وأجعلهما يرقصان على نغمات الـ Blue Sky ، ثم يخرجان إلى الشرفة فيتناجيان فى ضوء القمر مناجاة لا تصدر إلا عن شاعرين ملهمين لا عاشقين عاديين . وما كان علىّ إلا أن أجعلهما يتواعدان على اللقاء فى معرض من معارض الفن ليتحادثا عن الرسم والنحت ومشاهير الرسامين والمثالين ، فأستعلى بذلك على القارئ كما يفعل

قصاصنا ، ولأدخل فى روعه أنى ألم بكل فن ، ألم أتحدث عن الموسيقى بالأمس وأتحدث عن الرسم والرسامين اليوم ؟ وللزيادة فى الاستعلاء على القارئ ولإيهامه أنى أكثر منه ثقافة واطلاعا أجعل بطلى قصتى يكتشفان أنهما يهويان المطالعة ويفضلان علم النفس خاصة ، فأجعلهما يتحدثان عن فرويد وأدلر ويتذاكران ما قرآه لشوبنهور ، فيتحدثان عن الشعور والعقل الواعى والعقل الباطن ودهاليز القلب وممراته السرية !! أما ختام هذا الغرام العلمى فليكن ختاما علميا ، يلاحظ بطلنا فى عينى حبيبته نظرات زائغة ، نظرات غير طبيعية ، فإن كانت مثل هذه النظرات لا توحى بشىء إلى الرجل العادى من أمثالنا فإنها توحى بأشياء إلى بطلنا العالم النفسانى ، فيأخذ فى تحليل النظرات ، ويتبع تحليل النظرات بتحليل الأفعال ، فكل فعلة تصدر عن الإنسان لا بد أن يكون لها دافع داخلى . ويتدرج فى التحليل حتى يصل إلى الخيانة ، إنها تخونه ، فيهجرها دون دليل على الخيانة إلا دليل علم النفس العزيز ! » .

ومر حسنى بيده على ذقنه فألفاه خشنا نابت الشعر ، ففكر فى أن يدخل عند حلاق ليتزين ، فكم من قصة خطرت له وهو تحت يد الحلاق الذى يعبث برأسه ويحركه كما يحلو له . واحتل خاطر الحلاقة فكره فراح يتفرس فى المحال الممدودة على جانبى الطريق . واستمر فى السير حتى وقع نظره على لافتة زجاجية كتب عليها بخط ذهبى جميل : « ادخلوها بسلام آمنين » . فتطلع إلى الدكان فألفى شابا مرتديا معطفا أبيض يسر الناظرين وفى شعره مشط من العاج طويل ، فدلف حسنى نحوه وهو يتمتم : « توكلنا على الله فإلى جنة النعيم » . ودخل المحل فجذب الشاب المقعد الكبير المواجه للمرآة العالية ، فجلس حسنى وابتدأ الحلاق فى إخراج أدواته ، وراح حسنى يجول بعينيه فى المكان فألفى لافتة فى إطار جميل كتب عليها : « إذا كان السكوت من فضة

فالكلام من ذهب » . فالتفت حسنى إلى الحلاق وقال : « ما هذا الحال المقلوب ؟ » وكان الحلاق قد ابتدأ فى عمله فسأل : « أى حال ؟ » فأشار حسنى إلى اللافتة فقال الحلاق دون أن يلتفت إلى حيث كانت أصبع حسنى تشير : « هذا هو الصواب » . فقال حسنى : « الصواب هو : إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب » ، فقال الحلاق : « هذا عين الخطأ ، من قال إن السكوت يفضل الكلام ؟ » . فقال حسنى : « قال ذلك الحكماء ». فلم يعجب هذا الرد الحلاق فقال : « بل قال ذلك الذين لا يعرفون كيف يديرون الكلام ، الذين يفضلون أن يلوذوا بالصمت خشية أن يفصحوا عن جهلهم إذا ما تحدثوا . من ينكر فضل الكلمة يا أستاذ ، فكم من كلمة أنقذت رقابا من حبل المشنقة » . فقال له حسنى : « وكم من كلمة وضعت رقابا فى حبل المشنقة » . فقال الحلاق : « الذنب ليس ذنب الكلمة بل ذنب قائلها » . فقال حسنى : « والفضل فى إنقاذ رقاب من حبل المشنقة ليس فضل الكلمة بل فضل قائلها » . فقال الحلاق : « اتفقنا يا أستاذ فالفضل فضل القائل ، فينبغى أن نعد الناس لينطقوا بالكلمة الطيبة لا أن نطلب منهم أن يكونوا بكما لا ينطقون . تصور يا أستاذ عالما طبق هذه الحكمة الخاطئة فلاذ جميع أفراده بالسكوت ، أفلا يكون هذا العالم عالم جماد ولا أقول عالم حيوان ؟ فالحيوان يحاول أن يتكلم بما يصدر من أصوات ، السكوت نكبة يا أستاذ . كيف نطالب الناس بالسكوت وهو دليل الموت ؟ كيف نحضهم على أن يكونوا والحجر سواء ؟ إذا كنا نخشى أن ينزلجوا فى زلات اللسان فعلينا أن نعلمهم فن الكلام . الكلام فن يا أستاذ بل فن لذيذ . فكم من أناس ارتفعوا حتى أصبحوا قادة وزعماء لأنهم يعرفون كيف يتكلمون . أفكان من المنتظر أن يصيروا قادة لو أنهم اتبعوا حكمة السكوت ؟ وكم من نواب برزوا حتى صاروا أعلاما

بفضل إلمامهم بفن الكلام . الكلام فن وفن جميل » . فقال حسنى : « لا شك أنك فنان لأنك تجيد الكلام » . فقال الحلاق : « بل أنا فنان لأننى أجيد اللعب على الكمان » . فقال حسنى : « أتلعب على الكمان ؟ » . وكان الحلاق قد حلق نصف ذقنه ولا زال الصابون على النصف الآخر ، فما إن سمع الجملة الأخيرة حتى ترك الموسى وجفف يديه فى منشفة قريبة واتجه إلى كمان معلق فى الحائط وتناوله وقال : « سأسمعك الآن » . وقبل أن ينبس حسنى بكلمة ارتفعت الأنغام وراحت أصابع الحلاق تتحرك على الأوتار ورأسه يرتفع وينخفض وظهر على وجهه الرضا والانسجام .

وأطرق حسنى يسمع ، وانتهى الدور فسأله الحلاق : « ما رأيك الآن ؟ » فقال حسنى : « لولا أنى مشغول اليوم لطلبت منك أن تشنف أذنى بأدوار . إنك أستاذ . فقال الحلاق بصوت حاول أن يوحى بالتواضع : « العفو يا أستاذ » . وأراد أن يستدرج حسنى لمدحه والإشادة بفنه فقال : « إننا مبتدئون ، والطريق أمامنا طويل » . فقال حسنى : « إنك فنان موهوب » . فأرضى ذلك غروره فراح يعمل منشرح الصدر . وارتفع صوت بائع السمك ينادى : « بحرى .. بحرى » ، فوقفت الموسى فى يد الحلاق والتفت خلفه ، فقال له حسنى : « أتفكر فى أن تنادى على بائع السمك ثم تتركنى وتقلب فى السمك ثم تعود لتمسح يدك فى ذقنى ؟ بالله دع هذا الخاطر » . فضحك الحلاق ، وانتهت الحلاقة وقام حسنى وانصرف . وفى الطريق غمغم : لو لم يطلب منى رئيس التحرير كتابة مأساة لكتبت قصة هذا الحلاق الفيلسوف »

ورأى حسنى أن ينطلق إلى الجزيرة ، فهناك فى جنة القاهرة كما تعود أن يدعوها تعرف خياله بأغلب أبطال قصصه ، فقد ساعده هدوء المكان وجمال

الطبيعة على أن ينطلق خياله حرا يسبح فى عوالمه دون أن يكدر صفوه مكدر أو يقطع عليه سبحه اللذيذ قاطع . فكم قابل خياله هناك أبطالا يحبهم ، وكم عثر على صور بهيجة نقلها إلى قرائه ، ولكم ساعدته رؤية أسراب العشاق المتناغين المتناجين المتهامسين على التحليق فى عوالم حبيبة . فاتجه حسنى إلى الجزيرة ناسيا أن أبطاله الذين يبحث عنهم اليوم ليسوا ممن تعود أن يتعرف بهم هناك ، فإنه يجد فى أثر رجل قهره الحب وأعمته الخيانة فثار لكرامته المهدورة وهب لينتقم لنفسه ، بينما أن كل من يطوفون بالجزيرة ممن يهمون بوضع أرجلهم على أول درجة من درجات الحب ، فما قاسوا هجرا ولا صدا وما دارت أفكار الإنتقام برءوسهم بعد ، فأحبتهم بجوارهم يعطفون عليهم ويضمونهم إلى صدورهم فيطفئون لهيبها ، ويبادلونهم القبلات فيرفعونهم إلى السماوات فيحسبون أن الحياة سرور كلها ، بهجة كلها ، فتشع وجوههم رضا وأملا . فكيف يوحى أمثال هؤلاء السعداء إليه بفاجعة مروعة أو انتقام عنيف ؟ نسى حسنى كل هذا أو تناساه بمعنى أصح ، فما كان مخلصا فى تفكيره فى كتابة مأساة ، فلو أنه كان جادا لقبع فى داره وأعمل فكره ، وما كان من العسير عليه أن يلفق مأساة تستدر عطف الجمهور ، ولكنه كان فى قرارة نفسه يسخر من هذا النوع من الأدب ولا يتصور أنه يطيق الكتابة فيه ، دون أن يضيق صدره به أو ينفجر ضاحكا فى أعنف المواقف ويمزق ما كتب .

بلغ حسنى الجزيرة وقد همت الشمس بالمغيب فألقت على سطح الماء أسيافا من الذهب الإبريز ، ونظر إلى قرص الشمس المتوهج البادى بين سعف النخيل وإلى ظلال الوهج المتداخلة فى بياض السحاب الناصع فبدت السماء كلوحة فنية ابتدعتها يد فنان قادر ، فأخذ يتطلع إلى اللوحة التى كانت تتبدل وتتشكل بين لحظة وأخرى فارتسمت فى مخيلته مئات اللوحات الرائعات

التى استولت على لبه . وغاب عن الوجود لحظة وغمغم : « يا ليتنى كنت مصورا إذن لوضعت لهذا المنظر الساحر مئات اللوحات الخالدات » . وانطلق حسنى إلى الحديقة وجعل يجوس خلالها ، وراح يدور بعينيه فى المكان فألفى كل شىء كعهده به . ولمح مقعدا خاليا فتذكر أنه قد جلس عليه مرة بعد خروجه من دار سينما كانت تعرض قصة بطلتها الراقصة الحسناء بتى جرابيل ، وتذكر كيف تخيل بتى بجواره يومذاك وكيف أدار الحديث بينه وبينها ، فتفتحت أمام خياله معالم قصة فأسرع بالعودة إلى الدار وسجلها ودفع بها فى اليوم التالى إلى رئيس التحرير فأعجب بها ؛ فقد كانت قصة فوارة من وحى عيون ساخنة وشفاه ما خلقت إلا للقبل . فيمم حسنى شطر المقعد وجلس عليه وأطلق لفكره العنان لعل هدوء المكان يوحى إليه بما يصبو إليه ، وحلق خياله قليلا وقبل أن يغيب فى أجوائه وقعت عيناه على غادة شابة جالسة وحدها على مقعد قباله ، فهبط خياله من سمائه وتأهب لما سيدور بينه وبين حسنى من حوار حول الحسناء ذات الشعر الفاحم ، والعيون السوداء والبشرة السمراء ، وكانت ساهمة مفكرة فسأل حسنى خياله :

ـــ فيم يفكر الرأس الجميل ؟ وما الذى يقلقه ويزعجه ؟ وما الذى يدعوه للنفور والوحدة ؟ أهجره الحبيب ؟ ولم يهجره ؟ أم واعده ؟ ولم يف بوعده ؟ أم يخفى هذا الصدر الناهد سرا يضنيه ؟

ـــ وهبه يخفى سرا فمالك وما يخفيه ؟

ـــ قد يكون فى معرفته وكتابته ما يرضى رئيس التحرير ، ليتنى أعلم ما تخفى الصدور .

ـــ وهبك عرفت سرها وكان مما يرضى رئيس التحرير وفضول قرائك ، ومما يجرح إفشاؤه هذا الجمال الحالم ويفزعه ، أكنت تفشيه ؟

ــ أجل ولا ريب .

ــ اتق الله .

ــ وهل حافظنا على أسرارنا حتى يطلب منا ألا نفشى أسرار الناس ؟ إننا مصابون بمرض الإفضاء ، فما نحس شيئا إلا سجلناه ، وما يهجس فى نفوسنا هاجس إلا دوناه ، فإذا فرحنا أشركنا الناس فى أفراحنا وإذا حزنا حملناهم بعض همومنا .

ــ الويل لمن يأتمنكم على سره . هيا وانتقل بجوارها وحاول أن تجرها إلى الحديث لعلها تأنس إليك ، فيجر الحديث بعضه بعضا .

وقام حسنى وسار فى الممر الذى يمر بالمقعد الجالسة عليه الحسناء الحالمة ، ولما حاذاها رماها بنظرة خاطفة فراعه جمالها . وانطلق فى طريقه ثم عاد حتى إذا ما أصبح فى موازاة المقعد انحرف إليه وجلس على طرفه ، ثم أخذ يزحف عليه شيئا فشيئا حتى أصبح بجوارها فالتفت إليها وهمس :

ــ ما أجمل الجو اليوم .

فرفعت رأسها الجميل والتفتت مذعورة ، فقال :

ــ وما أجمل ما تقع عليه عيناى الساعة .

فقطبت جبينها ورمته بنظرة يتطاير منها الغضب ، وغمغمت وهى تترك المقعد شاردة كغزال نافر .

ــ وما أسخفك !

فثبت حسنى فى مكانه وهتف به خياله :

ــ ألا تتبعها ؟

ــ لا .

ــ ولم ؟ مالك تسمرت فى مقعدك ، أأصابك سهم لحاظها ؟

— لم يصبنى فإنى ألبس درعا ضد سهام العيون ، كما أنى لا أومن بالحب من أول نظرة .

— وهل تؤمن بالحب من ثانى نظرة ، لو كنت تؤمن به لما انتقلت من حب إلى حب .

— ما أشقانا ، فحبنا حقل تجارب يرضينا ما دام يمدنا بما يرضى الناس ، فإذا خبا وانطفأت قوة وحيه وانتهت قصته ، بحثنا عن حب جديد يمدنا بوحى جديد . إننا كفراشة تهوى التنقل من زهرة إلى زهرة ترشف من كل واحدة رشفة ، همها جمع الشهد وهمنا جمع الانفعالات والأحاسيس فنختزنها لنجترها إذا ما جلسنا للكتابة ولتصوير ما يعتمل فى صدور شخوص قصصنا ، فإننا فى واقع الأمر نسكب على القرطاس روحنا .

— هيا قد غابت الشمس وانقضى النهار ولما نكتب من القصة شيئا .

ونهض حسنى متثاقلا ، وسار مفكرا تاركا الجزيرة خلفه ميمما صوب قلب القاهرة . وأخيرا بلغ تقاطع شارعى عماد الدين وفؤاد الأول ، فألفى الناس يموجون بعضهم فى بعض يتدافعون بالمناكب كأنما البيوت قد أقفرت من سكانها وكأنما السكان جميعا قد خرجوا لمشاهدة مولد من الموالد ، فاستند إلى عمود من أعمدة النور الضخمة وأخذ يرقب أمواج الناس الوافدة عليه ويتفرس فى الوجوه ، وكان أغلب المارين اثنين اثنين فغمغم :

— ها هى ذى آلاف القصص المتحركة ، وإن لكل زوج قصة فهلا أوحى إلى مأساة من المآسى العديدة المكفنة فى رءوس هؤلاء البشر .

وما إن قفز إلى رأسه هذا الخاطر حتى راح يتطلع إلى كل اثنين يمران به تطلع من يود أن يتغلغل فى أعماق نفسيهما ليعود غانما بما يخفيان . ولمح شابا وشابة ينظر كل منهما إلى الآخر نظرات وله وحب ، ويلف كل منهما خصر صاحبه

بذراعه ، ويتناجيان كأنما الشارع قد أقفر من الناس إلا منهما فغمغم : « حب جديد » . ثم رأى رجلا يسير وبجواره سيدة فى مقتبل العمر جميلة جذابة يود المرء أن يحظى بكلمة من فمها الممتلئ الفاتن الذى يغرى بالقبل ، ولكن الرجل كان يسير صامتا وكأنما أنسته أفكاره ذلك الجمال السارى بجوارى ، فغمغم حسنى : « زوج وزوجه ، فهلا عرف الرجل لزوجه نفاستها ؟! » . ومر عليه جندى من جنود الخليفة يلف ذراعه حول خصر فتاة سمراء كل ما فيها يومئ بأنها كانت خادما من عهد قريب ، فما كانت تجيد السير بالحذاء ذى الكعب العالى ، فغمغم : « حب ولد الساعة ويموت بعد ساعة » . واستمر يرقب الغادين والغاديات ، وأحس الجوع يعضه بأنيابه فترك مكانه وسار إلى محل (ساندوتش) قريب ، وأخذ يتناول ما طلب وهو ينظر فى المرايا المثبتة على طول الحائط ، ورروعة منظره وهو يقضم (الساندوتش) فجعل يحملق فى المرآة ، ثم تذكر أن فى المحل خلقا كثيرا وأن أحدهم قد يلاحظ حركاته الشاذة فى المرآة فيحسبه مجنونا ، وما فكر فى هذا الخاطر حتى ابتسم ، ثم فكر فى أن أحدهم قد يراه يبتسم لنفسه فى المرآة فلا يشك فى جنونه فضحك ، ورأى الأنظار تلتفت إليه فأحس بالخجل يعلوه ، ثم أسبل عينيه برهة سأل نفسه فيها ما دهاه ؟ هل أتعبته كثرة التفكير ؟ وفتح عينيه فرأى فى المرآة فتاة رائعة الجمال فاستدار بسرعة فرأى أنوثة كاملة ، فقفز إلى رأسه خاطر : « هذا آخر وحى يهبط عليك الليلة ، فإن فر من بين يديك فلن تكتب الليلة شيئا » . وتركت الحسناء المكان فخرج فى أثرها وأغذ فى السير ليلحق بها وقد عقد العزم على مغازلتها فلن يحول بينه وبينها حائل ، واقترب منها وهم بمحادثتها ولكنها مدت يدها وفتحت باب سيارة صغيرة أنيقة ، ثم دخلت فلم يشعر إلا ويده تمتد إلى مقبض الباب وتديره ، وباب السيارة يفتح ، وقد ابتدأت السيارة فى السير ،



وقــام حسنـــى وسار فى الممـــر الـــذى يمر
بالمقعـــد الجالسة عليـــه الحسنـــاء الحالمة

فقفز فى داخلها و لم يدر كيف قفز فما فكر فى هذا وكأنما قوة خفية كانت تدفعه وكأنما عقله قد كف عن التفكير فكان يتحرك بلا عقل . و لم يثب إلى رشده إلا عقب صرخة الفزع التى انبعثت من الفتاة ، فحاول أن يستجمع شتات فكره ولكن مرت برهة لم يدر ما يفعل وما يقول . والتفت الرجل الجالس عند عجلة القيادة فرأى رجلا غريبا فى السيارة فهم بالوقوف ولكنه كان فى وسط الطريق ، فإذا وقف تعطلت حركة المرور ، فانطلق وقد احتل صدره غيظ قاتل ، وفى هذه الأثناء استعاد حسنى رباطة جأشه فالتفت إلى الفتاة وقال :

ـــ آسف لإزعاجك يا هانم ، ولكن ما باليد حيلة ، من يرى هذا الجمال ولا يسبى ؟.

ـــ أفندى سافل .

ـــ أنا عبدك .

ـــ وغد .

ـــ استمرى ، ما أعذب صوتك فى أذنى .

وفكر الرجل الجالس عند عجلة القيادة فى الوقوف وتحطيم وجه ذلك النذل ولكن التمعت فى مخيلته فكرة فانطلق بالسيارة ، و لم يكن المكان الذى يقصده بعيدا فما لبث أن وقف أمام نقطة بوليس ، وفتح الباب بسرعة وقفز من السيارة كليث هائج ، ومد يده وفتح الباب الثانى وأمسك بتلابيب حسنى وجذبه جذبة قوية أطارت صوابه ، وأخذ يدفعه أمامه حتى بلغا مكان ضابط المخفر ، فرأى حسنى أن يتصنع السكر فأخذ يتمايل ويهذى ويسب ، وراح الزوج يقص قصته ، وانتهى كل شىء وأغلق باب السجن خلف حسنى ، وما إن لبث قليلا حتى قفزت فكرة قصة رائعة إلى خياله ، ولكن أين يكتبها ومن ذا الذى يبلغها إلى رئيس التحرير ؟

صاع بصاع

نزل توفيق الإسكندرية وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب فجعل ينقب عن مكان يأوى إليه حتى الصباح ثم يخرج للبحث عن مسكن له ، فقد نقل ليعمل هناك بأحد فروع وزارته وقد يطول النقل فيستغرق سنين . وعثر توفيق مصادفة على نزل تديره امرأة رومية عجوز فحل به وفى مرجوه أن يقضى فيه سواد ليله ثم يرحل إلى مكان آخر ، فما كان توفيق ليطيق البقاء فى مثل ذلك المكان البغيض الذى تعافه النفس ويقبض ، وما كان ليطيق ثرثرة المرأة العجوز التى راحت تبدى وتعيد وهى تقوده إلى حجرته فى رطانة أجنبية ناطقة الحاء خاء ومضيفة واوا فى نهاية الأفعال فى صوت ممل قبيح ، ففهم منها كلمات وفاته عشرات ، وما كان يهمه أن يفهم بقدر ما كان يهمه أن يتخلص منها سريعا . ودخل حجرته وخرجت المرأة العجوز وأغلقت عليه الباب فأحس بعض الراحة . وألقى عنه ملابسه وتمدد على السرير ليستريح ، وسبح فى عالم الخيال قليلا ، وقطع عليه سبحه ارتفاع صوت قبيح بالغناء فظهر عليه الامتعاض . واستمر الصوت يؤذيه فتقلب فى رقدته وحاول أن يحول انتباهه وجهة أخرى ولكن الصوت كان يرن فى حجرته . فضاق صدره وفكر فى أن يخرج ليرجو المغنى أن يكف ، ولكنه كظم غيظه وتكلف الصبر فما هى إلا ليلة وبعدها الرحيل فليقضها كيفما اتفق . وخفت الصوت ثم تلاشى وسيطر السكون فهدأت أعصابه وصفت نفسه ، واستأنف تفكيره فى حياته الجديدة : إنه كان بالأمس فى القاهرة بين أهله ورفاقه ، وهو اليوم فى الإسكندرية وحيد لا يعرف أحدا ولا يعرفه أحد كأنما ولد من جديد . وخطر على باله غده وما ينتظره فيه فشعر برهبة : رهبة الخوف من المجهول . إنه ليقدم على أناس لا يدرى ما مصيره وإياهم ، أيرضى عنهم ويرضوا عنه أم يشقى بهم

ويشقون به؟ وقطع عليه تفكيره انبعاث أصوات فى الردهة وجلبة مقاعد تتحرك ، وسمع نقرا خفيفا على بابه فاعتدل فى سريره وقال :

ــ ادخل .

ففتح الباب فى رفق وأطلت العجوز برأسها الناصع البياض ووجهها المتغضن ، وسألت توفيق أن يتفضل للعشاء فاعتذر على الرغم من جوعه ، فقد كان يخجل أن يأكل مع أناس أغراب .

وأطفئت الأنوار ونام توفيق وكان نومه خطفا ، فما يكاد يغمض عينيه ويستسلم للرقاد حتى يستيقظ شأن من يغير مكان نومه لأول مرة . وسمع توفيق فى سكون الليل صرير باب خفيض لا ينبعث الا عن باب يفتح أو يغلق بحذر ، فلم يسترع ذلك انتباهه و لم يوح إليه بشىء ، وطفق يحاول أن يجلب النوم ليهنأ بلذيذ الرقاد .

وأدبر الليل وأقبل النهار فقام توفيق يعد أمتعته وقد عزم على الرحيل . فلما أعد كل شىء خرج لبعض حاجته فوقع بصره فى المطبخ على فتاة ليست باهرة الحسن ولا رائعة الجمال ، ولكن كانت تتحلى بجمال الفتوة والشباب ، فوقف يرقبها فألفى قوامها معتدلا والحياة تترقرق فى وجهها ، وكانت كل لفتة منها أو حركة من جسمها توحى بحيوية دفاقة . ووقع بصرها عليه وهى تتناول وعاء من فوق الرف فأشرق وجهها وابتسمت ، فابتسم لها وأومأ لها برأسه محييا فأومأت له برأسها وانصرفت إلى عملها .

وعاد توفيق إلى غرفته واتجه من فوره إلى الجرس المتدلى بالقرب من سريره وضغطه ، ففتح الباب ودخلت الفتاة وانتظرت أوامر توفيق ، فرفع بصره إليها وقال :

ــ أريد فطورا .

ــ هنا ؟.

ـــ نعم .

فخرجت الفتاة وما لبثت أن عادت تحمل صينية عليها طبقان فى أحدهما جبن وفى الآخر بيضتان ، وكوب لبن ورغيف . ووضعت الصينية أمامه واستدارت لتخرج ، فجعل توفيق ينظر إليها حتى خرجت وأغلقت الباب .

وتناول فطوره وذهب إلى ملابسه ليرتديها ليخرج إلى عمله ، وتناول قميصه وقبل أن يلبسه خطر له أن يمكث اليوم وأن يقدم نفسه إلى المصلحة غدا ، فأعجبته الفكرة فأعاد قميصه إلى المشجب وجلس . وراح الوقت يمر ، فخلا النزل من الناس إلا منه ومنها ومن العجوز ، وارتفع الصوت القبيح بالغناء فتضايق توفيق ، وفتح باب حجرته فى استياء وخرج لينظر ذلك الذى يعكر عليه الهدوء ، فألفى الفتاة وهى تغنى وهى تقوم بتنسيق الغرف ، والتقت عيناه بعينيها فابتسم وابتسمت ، وعاد إلى حجرته وقد فر حنقه وراح يستمع إلى الأغنية ولم يتبرم ولم يضق صدرا . وسمع نقرا على الباب ، فاعتدل فى جلسته وقال :

ـــ ادخل .

فدخلت الفتاة وسألته الإذن فى إعادة تنسيق غرفته ، فأذن لها ولم يغادر المكان ، فجعلت تقوم بعملها وهو يتبعها بنظره ، واتجهت إلى السرير وتناولت الملاءة المنشورة فوقه وراحت تستبدلها بأخرى نظيفة ، فكانت كلما نشرتها فى ناحية انطوت فى الناحية البعيدة ، فقام توفيق وأمسك بطرف الملاءة البعيد وأخذ يعاونها فى وضعها على السرير ، وجعل يسوى الملاءة ويقترب من الفتاة حتى التصق كتفه بكتفها ، وتلاقت العيون أكثر من مرة ، واصطدم الجسم بالجسم مرات ، وخطر له أن يضع يده فوق يدها فحرك يده ورفعها ، وقبل أن يضعها ارتفع صوت العجوز تنادى :

ـــ كاترينا .. كاترينا .

فتركت الفتاة الغرفة وأسرعت تلبى نداء جدتها ، واتجه توفيق صوب أمتعته التى حزمها وفكها فقد قر رأيه على البقاء .

وراح توفيق يحوم حول كاترينا ، فخرج إلى الردهة وجلس يتظاهر بالقراءة فى مجلة ، وكان يشاغلها إذا ما مرت أمامه ، وكان يقوم إلى الحوض مرة وإلى صينية القلل مرة أخرى إذا ما غابت فى المطبخ ليمر بها أو لينظر إليها . وكان فى كل مرة يرنو إليها فى وله وكأنما يلتمس منها ألا تغيب عن عينيه طويلا . وعاد إلى مقعده وقد نشر المجلة أمامه ، وما كان يقرأ شيئا بل كان ينظر من ثقبين فى المجلة ثقبهما بدبوس معه ، كان يرقبها من خلالهما ويعد عليها حركاتها . وانتهى عمل كاترينا فعادت إلى الردهة وجلست على مقعد قريب من مقعد توفيق ، فوضع المجله على ركبتيه والتفت إليها ولم يتكلم ، فقالت :

— ما تقرأ ؟

فقال فى خبث وهو يبتسم :

— روميو وجوليت .

فابتسمت ومالت برأسها إليه ، وقبل أن يخوضا فى الحديث ارتفع صوت الجدة :

— كاترينا .. كاترينا .

فقامت إلى جدتها بعد أن استأذنت منه ، وانتظر توفيق أوبتها ولكنها غابت فعاد إلى حجرته .

وحان أوان الغداء فدق الجرس ، فجاءت كاترينا فسألها أن تحضر غداءه ، فخرجت ثم أقبلت تحمل صينية عليها الطعام ، وسارت حتى اقتربت منه وانحنت لتضع الطعام أمامه فاقترب وجهها من وجهه ولفحتها حرارة أنفاسه ، فرفعت عينيها فالتقت بعينيه فرأت فيهما بريقا ما كان غريبا عليها فطالما رأته فى عيون النزلاء ولطالما عملت كاترينا جاهدة على إطفائه . واعتدلت كاترينا

وسارت لتغادر الغرفة ولكنها سمعت توفيق ينادى :

ـــ كاترينا .

فالتفتت إليه من فوق ظهرها فقال :

ـــ ألا تأكلين معى ؟ إنى أكره أن آكل وحدى .

فهزت رأسها بالنفى وقد انفرجت شفتاها وخطت خطوات ، وأراد توفيق أن يبقيها فى الغرفة فضرب بيده كوب الماء ، فسقط على الأرض فتهشم . وأقبلت كاترينا لتجمع الزجاج المتناثر ، وقام توفيق ليعاونها فى جمع الزجاج وقد التقت يده بيدها مرات واصطدم رأسه برأسها وهما ينثنيان لالتقاط قطعة من الزجاج فضحكا . وتم جمع الزجاج المتناثر وجفف الماء ، وانتصبت كاترينا وفى يدها حطام الكوب فمرر توفيق يديه على ذراعيها العاريتين وقال وهو ينظر إلى عينيها :

ـــ آسف يا كاترينا فقد سببت لك تعبا .

فقالت له وهى تبتسم :

ـــ لا بأس .

وخرجت كاترينا وجلس إلى الطعام ولكن لم يجد له شهوة للأكل . وراح يفكر فى كاترينا ويتمنى أن تقبل لتروى ظمأ النفس ، وأكل لقمات ثم ترك الطعام وقام إلى سريره يتمدد ويطلق لخياله العنان . ومد يده إلى الجرس فأقبلت فسألها أن ترفع الطعام ، فتقدمت لتحمل الصينية فرأت الأكل لم يمس ، فالتفتت إليه فقالت :

ـــ أكلت ؟

ـــ نعم .

وهمت بأن تسأله عما إذا كان الطعام لم يعجبه ولكنها وجدته قد أسبل جفنيه فقالت :

ـــ أتنام ؟

ففتح عينيه وقال وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة خبيثة :

ـــ والله أكره أن أنام وحدى .

فتركته وسارت ، وقبل أن تغادر الغرفة التفتت خلفها من فوق كتفها ورنت إليه فى دلال ، فأشار لها بأصبعه : تعالى .. فهزت كتفها هزات ، ثم ضحكت ضحكة خافتة ممدودة جعلت الدم الحار يتدفق سريعا إلى رأس توفيق ، فهب من سريره ، ولكنها فتحت الباب وانسلت فى خفة الغزال .

وابتدأ النهار يفر ، وقبل أن يهجم الليل خرج توفيق قاصدا صينية القلل القريبة من المطبخ فاصطدم بكاترينا فى الردهة الضيقة والتصق صدره بصدرها فطوقها بذراعيه وحاول أن يقبلها ، وقد كان مطمئنا إلى الظلام السائد فى الردهة فهمست وهى تتصنع محاولة الإفلات من الذراعين الملتفتين حول خصرها :

ـــ ليس هنا .. ليس الآن .

فغمغم :

ـــ أتوافيننى هناك ؟

فهزت رأسها موافقة ، فتركها بعد أن قبلها قبلة خاطفة لا يدرى أين سقطت . وانقضى من الليل شطره فأطفئت الأنوار ، ودخل توفيق فراشه وتمدد وحاول النوم فما كان يظن أن توافيه كاترينا سريعا ، وكان يحسب أن لا بد من مناورات تستغرق أياما ، ولكن لم ينقض كثير وقت حتى انبعث صوت صرير باب فتذكر ما سمعه بالأمس ، ولكن الصوت كان أكثر وضوحا فانتصب فى سريره وقد أرهفت حواسه وزاد وجيب قلبه ، وتطلع نحو الباب فى قلق فألفى باب حجرته يفتح بخفة وشبحا ينسل فى رشاقة ويغلق الباب خلفه . إنها هى تسير على أطراف أصابعها فقام إليها ليستقبلها بين أحضانه .

ومرت دقائق قضت فيها كاترينا على الأحاسيس الفوارة التى ازدحم بها صدر توفيق وما تركته حتى انطفأ ذلك البريق الذى كان يشع من عينيه . ثم ارتفع صرير الباب ثانية ، ثم ساد سكون رهيب لم يكن يعكره إلا صوت غطيط توفيق .

وانقضت سنة وتوفيق فى النزل لم يبحث له عن سكن ، فإنه ليجد فيه كل ما يحتاج إليه شاب أعزب . فلئن كان قد تضايق فى أول الأمر من الأصوات الصادرة من أبواب غرف النزلاء التى تفتح وتغلق فى حذر فى جوف الليل ، انه قد اعتاد ذلك كما اعتاد مشاركة هؤلاء النزلاء فى طعامهم . وفى يوم خرج الجميع إلى السفرة فوجدوا طعاما فاخرا لم يقدم إليهم مثله فى النزل أبدا ، فتبادلوا النظرات ، ثم نظروا جميعا إلى كاترينا فابتسمت ، فقال توفيق :

— ما هذا اللغز ؟

فراحت الجدة تزف نبأ خطوبة كاترينا بصوتها القبيح ونطقها العجيب ، فنزل على الجميع وجوم ولم ينبس أحدهم بكلمة ، ثم قال توفيق :

— مبروك .

فوجد الآخرون لسانهم فأخذوا يهنئون ويتمنون لها أطيب التمنيات .

وحملت كاترينا إلى دار الزوج الجديد فأخذ النزلاء يفرون واحدا إثر واحد ولم يبق إلا توفيق ، ولم يمنعه من الفرار وفاء ولكن كان قد عقد النية على الزواج ، فأراد أن يستجم . وقد صار هذا النزل أفضل مكان للاستجمام فلن يرى فيه إلا الجدة الشمطاء . ومرت الأيام وقد شغل توفيق بإعداد السكن الجديد فأعد كل شيء فى مدينة الإسكندرية ، فقد كانت الزوجة من هناك وقد زين له أصهاره السكنى بينهم فوافق ، وفى يوم ترك توفيق النزل إلى العش الجميل .

وكرت الأيام تتبعها الشهور ثم السنين ، ورزق توفيق طفلا وسقط الطفل



وقبل أن تغادر الغرفة التفتت خلفها
من فوق كتفها ورنت إليه فى دلال

مريضا وراح الطبيب يعوده وينصح باتباع هذا واجتناب ذاك ، ولكن لم تتقدم صحة الطفل العزيز . وفى يوم أشار الطبيب بجلب دواء فخرج توفيق يطلبه فى المدينة كلها فلم يجده ، وقيل إنه يستطيع العثور عليه فى الإسكندرية فعاد إلى الدار . فلما رأى ألم الغلام نظر إلى زوجه وقال إنه سينطلق إلى الإسكندرية ليحضر الدواء ، ولما كان النهار قد أدبر فسيبيت بها ويعود مع الصباح . وهبط توفيق الإسكندرية فلم يفكر فى المكان الذى يبيت فيه ، وانطلق إلى نزل كاترينا ، وفى الطريق تذكر أيام كاترينا فأنساه ذلك بعض ما يضنيه ..وبلغ النزل وقد أحس إليه حنانا ، وراح يصعد فى الدرج وقد عادت إليه الذكريات فانتشى بعض النشوة ، ورأى الجدة منتصبة فأسرع إليها وحياها فبالغت فى الترحيب به ، ثم التفت فوقع نظره على كاترينا جالسة وحدها فيمم شطرها . فلما رأته قامت تحييه فى شوق ، وجلس بجوارها وأخذ بأطراف الحديث فعلم أنها جاءت الليلة لتبيت مع جدتها لأن زوجها قد سافر إلى القاهرة .

وانقضت السهرة ودخل توفيق حجرته . وأطفئت الأنوار وانبعث صوت لم يسمعه توفيق منذ سنين ، صوت صرير باب يفتح فى حذر ، فأحس اضطرابا ما كان يحسه فى الليالى الخوالى وشعر بقشعريرة تسرى فى بدنه ولم يقو على النهوض واحتبس صوته ، فأقبلت كاترينا حتى وقفت عند رأسه ومالت عليه وقبلته فمات خوفه وجرى الدم حارا فى عروقه . وانقضى الليل وصاح الديك معلنا إقبال النهار الفضاح ، فانبعث صوت صرير الباب ثم عاد السكون كما كان .

وطلع النهار وخرج توفيق يبحث عن الدواء وقد ساوره قلق واضطراب ، وانطلق وهو يحس رهبة وانقباضا وجعلت الأفكار السود تهاجمه . ورأى صيدلية فدلف إليها وسأل فيها عن الدواء فناوله الرجل زجاجتين ، سقطت من يده إحداهما ، وعلى الرغم من أنها لم تنكسر فقد تطير وتشاءم ، وأخذ الدواء

وانطلق إلى القطار وجلس ينتظر السفر فعادت الأفكار السود تهاجمه فمشى إلى صدره خوف . وسار القطار وظلت أفكاره جاثمة فى رأسه تعذبه وتضنيه . وحاول أن يطرد تلك الأفكار وأن يتخلص منها فأخرج من جيبه سلسلة جعل يلفها حول أصبعه فى تبرم ، وجعل يخرج ساعته من جيبه وينظر فيها فى ضيق ، وما تكاد ساعته تعود إلى مكانها حتى يعود فيخرجها . وتمنى أن يسرع القطار لتنقضى رحلة العذاب وتستقر نفسه القلقة ويستريح من أفكاره ، وراح يطل من شباك القطار لا يستقر له قرار . وتمت الرحلة فأسرع نحو الدار ، وكان كلما اقترب منها ازداد خفقان قلبه واحتلت الرهبة صدره . وصك أذنيه صوت أفزعه صوت عويل طويل ، فتسمر فى مكانه مشدوها وقد أحس قلبه يغوص فى حذائه . ثم انطلق مفزوعا فأخذ العويل يتضح وكان منبعثا من داره ، فأحس نارا تشوى كبده وغصة تقف فى حلقه ودموعا تحجرت فى مقلته ، فقد مات ولده .

وسار مطأطئ البصر تكاد كبده تتفتت وقلبه ينهمر ، وانبعث من جوفه صوت واضح النبرات جعل يرن فى أذنيه : مات بسببك ، فجرت فى أمسك فتخلى الله عنه ، صاع بصاع .

وأقبل الناس يعزونه فما كان يفقه ما يقولونه ، بل كانت جميع الأصوات تختلط فى نفسه ويصدر عنها نفس الصوت الواضح النبرات : مات بسببك ، مات بسببك ، فجرت فى أمسك فتخلى الله عنه .

وانزوى بعيدا فريسة طيعة لفكره ، يذرف الدمع السخين على ابنه الذى مات بسببه ، وجعل صوت ضميره يؤنبه ويخزه وخزا شديدا ما أقساه .



اللافتات في الحكومة

وضع عم أمين رجله لأول مرة على عتبة وزارة من الوزارات ودخل وهو يتلفت فى وجل ، فما دخل وزارة من الوزارات أبدا فهو رجل تاجر قضى عمره فى حانوته لا يعرف الحكومة ولا تعرفه الحكومة إلا عندما تطالبه بتسديد ضرائبها ، فيدفع ما يطلب منه دون اعتراض ويحمد الله على أنه فض الحكام بسلام . وعم أمين رجل طيب لا يعرف طريق نقطة البوليس أبدا ، فإذا طلب هناك لمخالفة من المخالفات انطلق مسرعا مضطربا يحوقل ويدعو الله أن يكشف عنه الغمة التى نزلت به . وإن أبغض ما يبعضه هو الاتصال برجال الحكومة ، فإنه يعتقد أن الاتصال بهم بلاء يمتحن الله به عباده .

صعد عم أمين بضع درجات فراح قلبه يقفز فى صدره ، وسمع رئيسا ينهر ساعيا من السعاة فغاص قلبه وأحس به يسقط فى رجليه فراح يلعن ذلك اليوم الأغبر الذى استولت فيه الحكومة على بضاعة من عنده ، فاضطر بعد أن انقضت أشهر دون أن يعلم عن بضاعته شيئا أن يجىء للمطالبة بثمنها . وما كان يدور بخلده أن الحكومة العظيمة لا تفترق عن زبائنه من الموظفين الذين يزوغون أشهرا من دفع ما عليهم، وكان يحس أن المبلغ سيدفع له عقب استلام البضاعة فورا ولكن الأيام مرت والمبلغ نائم فى خزانة الحكومة فى الأمن والصون.

انطلق عم أمين فى ممر طويل وراح يتذكر اسم القسم الذى أخبروه أن يستفسر منه عن مآل ماله فتذكر اسمه ، ولمح ساعيا يرتدى ملابس صفراء زينت بأزرار نحاسية صفراء لامعة فتقدم منه فى تهيب وسأله فى أدب :

ــ قسم الصرفيات من فضلك !

فأشار الساعى إلى حجرة فى نهاية الممر بكبرياء و لم يفتح فمه بكلمة كأنما يخشى أن تفر اللآلئ من فيه إذا ما فتحه، فشكره عم أمين وانطلق فى الممر وهو يغمغم:

« مالنا وقسم الصرفيات ؟ كنا فى محلنا مكرمين وكانت بضاعتنا عندنا ، ولكن ما باليد حيلة هكذا شاء الله والحمد لله لا يحمد على مكروه سواه » .

وبلغ الحجرة التى أشار إليها الساعى ورأى على جانبها لافتة نحاسية كتب عليها « قسم الصرفيات » . وهم بالدخول ولكنه رأى لافتة كبيرة على الباب بخط كبير : « ممنوع الدخول بأمر سعادة وكيل الوزارة » . فنظر عم أمين إلى اللافتة فى ذهول وتساءل : « من أين إذن نصرف مالنا إذا كان الدخول ممنوعا ؟ » . وراح يذهب ويجىء أمام الغرفة فى تبرم وضيق ، وهم أكثر من مرة بأن يعود من حيث أتى ولكنه تذكر أنه دائن للحكومة بأكثر من ألف جنيه منذ أكثر من ستة شهور ، فكيف يعود وقد أخبره الموظفون من زبائنه أنه إن لم يجر وراء المبلغ ويطالب به فسيصله بعد سنوات إن شاء العلى القدير . وراح يفكر فيما كان يفعل لو أن هذا المبلغ كان رأس ماله كله ، أكان يغلق حانوته ويعلن إفلاسه ويقدم دفاتره ؟ وما تذكر هذا حتى ازداد غيظه وعزم على اقتحام باب قسم الصرفيات وليكن ما يكون ، ولتفعل به الحكومة ما تشاء .

وهم بدفع الباب ولكن خانته شجاعته وتعوذ بالله من الشيطان الذى وسوس له بدفع باب الحكام دون استئذان . ورأى فراشا جالسا بالقرب من الباب وقد غفا إغفاءة خفيفة فتقدم منه وهمس خشية أن يزعجه أو يكدر مزاجه الرقيق : « من فضلك » . فرفع الفراش عينين محمرتين وزام : « هيه » . فقال عم أمين فى رقة :

— لى مبلغ بسيط هنا وأحب أن ...

وقبل أن يتم عم أمين حديثه قال الفراش :

— ادخل سل الـ ...

وعاد إلى إغفاءته ثانية ، وراح عم أمين يتطلع إلى اللافتة الكبيرة التى تحرم الدخول بأمر سعادة الوكيل ، وهم أن يهز الفراش ليشير له إليها ولكنه دفع

الباب ودخل وقد اطمأنت نفسه بعض الاطمئنان ، فما كان يظن أن معضلة الدخول تحل هكذا سريعا . ووجد نفسه فى حجرة طويلة قد رصت المكاتب على جانبيها وجلس فى الصدر رجل كبير أبيض الشعر ، فنظر إليه ووقع نظره على لافتة علقت فوق رأس الرجل كتب عليها بخط جميل كبير : « وقتنا للعمل » . وكان الرجل غارقا فى قراءة صحيفة من صحف الصباح ، فأدار عم أمين عينيه فى المكان فرأى اثنين جالسين على مكتب واحد يتناولان الإفطار ، وآخر يرشف فى فنجان قهوة ويشد أنفاسا من سيجارة أمامه ، ومكتبين خاليين . واستقرت عيناه ثانية على اللافتة وأعاد قراءتها : « وقتنا للعمل » . فعجب ، وسار إلى الرجل الكبير حتى إذا بلغ مكتبه وقف صامتا ينتظر أن يفرغ الرجل من قراءة الصحيفة التى فى يده . واستمر الرجل فى القراءة وانقضى وقت كبير فضاق صدر عم أمين ولكنه كظم غيظه ولم يجرؤ على أن يفتح فاه حتى لا يضايق السادة الكرام ! وأخيرا وضع الرجل الصحيفة على المكتب واعتدل فى كرسيه فاطمأن عم أمين فقد فرغ له ، وهم بالسؤال ولكن الرجل قال : « والله أمر عجيب » . فارتجف عم أمين وظن أن الرجل سيوبخه على اقتحامه الغرفة المقدسة فهم بالفرار ، ولكن الرجل استمر فى حديثه : « أمر عجيب حقا ، كان معى حتى التاسعة مساء صحيحا معافى وأقرأ نعيه فى الصباح ! . مسكين إسماعيل بك ، كنا زميلين فى المدرسة وسافرنا إلى السودان معا وابتدأنا فى درجة واحدة ، ولكنه كان محظوظا فقفز وقفز ورسبت أنا فى القرار . مسكين إسماعيل بك ، بل المسكين أنا ، بل المسكين هو فما أخذ معه شيئا . والله ليخيل إلى أن الدنيا تخدعنا جميعا ، كنا أنا وإسماعيل بك .. » واستمر يقص قصته ويبدى ويعيد ، وانقضى نصف ساعة أو يزيد وعم أمين يتميز غيظا ، ومما زاد فى مضايقته أنه كان مضطرا إلى مجاراة مرءوسى الرجل الذى كان يقص عليهم قصته فكان يهز رأسه مثلما يهزون ويبتسم عندما



فقال عم أمين فى رقة : لى مبلغ بسيط هنا وأحب أن . .

يبتسمون ويطقطق بشفتيه مثلهم عندما يطقطقون . وانتهى الرجل من قصته المملة . ونظر إلى الواقف أمامه فى عجب كأنما لم يره قبل الساعة وسأله : « نعم ؟ » .

فابتدأ عم أمين فى سرد قصته بنبرات مرتعشة بعض الشىء :

ــ استولت الحكومة من ستة أشهر على بضاعة من ...

فأشار الرجل إلى مكتب بالقرب من الباب وقال :

ــ هناك .

واتجه عم أمين إلى المكتب المنشود فألفى موظفا غارقا فى ملفات كثيرة لا يكاد رأسه يظهر منها ، وقد علق خلفه لافتة كتب عليها : « ممنوع الاستعلامات » . فوقف برهة لا يجرؤ على أن يحرك ساكنا . وقام الموظف دون أن يلتفت إلى الواقف أمامه وانطلق إلى التليفون وأدار قرصه ، وراح عم أمين يرقبه فألفى أسارير وجهه تنبسط ثم يبتدئ فى الحديث : « آلو .. لولو ... صباح الخير يا لولو ... أين كنت بالأمس ؟ كنت فى جهنم ... جهنم الحمراء ... ها ها ها ... لا فرق بين البلد وجهنم ... لا أطيق البعد عنكم يا روحى » .. ووقع نظر عم أمين على لافتة جميلة فوق التليفون كتب عليها « للمحادثات المصلحية فقط » . وعاد الموظف إلى مكتبه بعد انتهاء المحادثة المصلحية الهامة ، فابتسم عم أمين له ابتسامة عريضة ولكنه لم يلتفت إليه وجلس يقلب فى الملفات المكدسة أمامه فى إهمال . وعيل صبر عم أمين فتشجع ونطق « تسمح يا سعادة البك » . فاعتدل البك فى جلسته وقال فى غطرسة :

ــ أفندم .

فقال عم أمين فى أدب :

ــ استولت الحكومة من ستة أشهر على بضاعة من عند محسوبك أمين عبد العال ، وجئت لأستفسر عن ...

— سل فى قسم المحفوظات .

خرج عم أمين ينفخ غيظا ويلعن اليوم الذى اضطره إلى مقابلة السادة الكرام ، وراح يسأل عن قسم المحفوظات فدلوه عليه ، فانطلق حتى بلغه فرأى على بابه لافتة من اللافتات العتيدة كتب عليها : « ممنوع الدخول » فلم يأبه لها فقد علم أن اللافتات فى الحكومة ككشف التسعيرة عند التاجر لا بد من تعليقه ولا يعمل به ، فدفع الباب ودخل فوجد أناسا كثيرين يتخطفون ملفات عديدة ، والتفت إلى جواره فرأى لافتة كتب فيها : « ممنوع منعا باتا أخذ ملفات » . وخطر له خاطر فأخرج من جيبه قلما وأضاف « بأمر سعادة وكيل الوزارة » وابتعد عن اللافتة وراح يقرؤها من بعيد وقد أحس ارتياحا ، وغمغم : « هكذا أفضل، فقد أصبحت لافتة كاملة » . وانطلق يتفرس فى وجوه الموظفين العديدين الذين يعملون فى هذا القسم الكبير فوقع نظره على أحد زبائنه فأسرع إليه وحياه ، فنهض الموظف وبش فى وجهه وقال له :

— ما جاء بك إلى هنا يا عم أمين ؟

— لى موضوع بسيط ، فقد استولت الحكومة من ستة أشهر على بضاعة ولم أقبض ثمنها حتى الآن .

— انتظر حتى أعود .

وقام الموظف ولم يغب طويلا ، وعاد وقال لعم أمين :

— الأوراق أمام السكرتير المالى .

— متشكر ، وهل تتأخر الأوراق عنده كثيرا ؟

— المسألة مسألة حظوظ .

— إن كانت مسألة حظوظ فلتطمئن ، وليعوضنا الله خيرا فى مالنا .

فضحك الموظف وقال :

— اطمئن سيصلك (شيك) قريبا .

وسلم عم أمين وخرج وقد عزم على العودة من حيث أتى ، وفيما هو يقطع الممر الطويل وقع نظره على لافتة كتب عليها « السكرتير المالى » فوسوس له شيطانيه : « لم لا يدخل على السكرتير المالى ويرجوه أن ينهى أوراقه المعلقة ؟ وأعجبته الفكرة فيمم صوب الغرفة ، ووقع بصره على اللافتة العتيدة : « ممنوع الدخول » فابتسم ونظر إليها كأنما يقول لها : « إنى أدرى الناس بقيمتك » . واندفع صوب الباب ودفعه ودخل دون أن يلتفت إلى الساعيين الواقفين بالباب ، وقبل أن يقطع فى الغرفة خطوات أحس يدين توضعان على كتفيه وتجذبانه إلى الخارج ، ولما أصبح فى الممر أخذ هذا يدفعه فى صدره وذاك يجذبه من كتفه وهذا يصيح : « أوكالة هى ؟ » . وذاك يهتف : « كيف تقتحم الباب وتدخل بلا استئذان ؟ » . وتحمل الإهانات صابرا ، وما إن واتته فرصة الزوغان حتى انفتل وترك الوزارة وهو يعجب فى نفسه أشد العجب من الحكومة ولافتات الحكومة .



— مالك مطرقة ؟

— لا شيء .

— ولكن وجهك يفصح عن قلق ، فما يقلقك ؟

— لا شيء .

— أتخفين عنى همومك ؟ أنا صديقتك الوحيدة ورفيقة صباك وموضع سرك ، بالله ما يقلقك ؟

— إنى حزينة .

— مم ؟

— من أجلك .

— من أجلى أنا ؟

— أجل أما بلغك ؟

— وما بلغنى ؟

— أما بلغك أن زوجك سيتزوج ؟

فأحست الزوجة كأن طعنة قاتلة صوبت إليها وكأن شيئا سقط فى صدرها وكأن قلبها يغوص وكأن غشاوة أسدلت على عينيها . وهمت أن تصرخ مستفسرة « زوجى أنا ؟ » . ولكن حبس صوتها وأحست غثيانا ودوارا ، فمدت يدها وقبضت على الكرسى الجالسة عليه خشية أن يميد بها . ورأت صديقتها ما اعترى وجهها من اصفرار وما بان عليها من فزع فشعرت بندم على ما بدر منها ، وأرادت أن تعتذر عما سببت لها من ضيق فقالت :

— إنى آسفة ما كان لى أن أخبرك ، ولكن الناس جميعا يتحدثون بهذا فلم أطق أن أدعك حتى تلطمك الحقيقة ، بل رأيت أن أصارحك لعل فى معرفتك

ما يمنع وقوع الكارثة .

ـــ هذا محال لا يمكن تصديقه ، زوجى أنا يتزوج ؟ وممن ؟

ـــ والله لا أدرى ، هذا ما يتحدث به معارفك .

ـــ لا أصدق ، إنه يحبنى ، أجل يحبنى .

ـــ حذار أن تطمئنى إلى الرجال .

ـــ ولكنه يحبنى ، إنى أجزم بهذا . أمن العسير أن نعرف شعور من يحبنا ؟!

ـــ إنهم يتصرفون أحيانا كما يتصرف الأطفال ، إن إحدى صديقاتى أمضت وزوجها ليلة هانئة سعيدة وفى الصباح تلقت ورقة الطلاق .

ـــ هذا فظيع ، إن زوجى طيب القلب لن يقترف هذا الجرم أبدا .

ـــ لعلها استغلت طيبة قلبه فألقت عليه شباكها ، فلما وقع فى أسرها لم يستطع فكاكا .

ـــ من هى ؟ من هى ؟ قولى .

ـــ لا أعرفها .

ـــ بل تعرفينها وتنكرين ، أتودين تعذيبى ؟ أيلذ لك أن ترينى فى حيرتى وقلقى ؟!

ـــ ترفقى بى ولا تكونى قاسية ، لو كنت أعلم من هى لأخبرتك .

ـــ قد يكون الأمر مختلفا ، مجرد إشاعة .

ـــ قد يكون ، وقد أخبرتك لتأخذى الحذر .

ـــ ولكن زوجى لم يغب عن البيت أبدا .

ـــ وهل من الضرورى أن يغيب عن البيت ، إنه يستطيع أن يقابلها نهارا .

ـــ وإن معاملته لى لم تتغير ، فما زال يدللنى كما كان يدللنى دواما .

ـــ إنهم يفعلون ذلك دائما ، وإنهم ليبالغون فى تدليلنا إذا ما أخطئوا فى حقنا ليخفوا عواطفهم الحقيقية نحونا .

— إن زوجى لا يستطيع أن يكبت عواطفه ، إنى أعرفه جيدا . إنه إذا غضب ظهر الغضب فى وجهه وإذا فرح بان الفرح فى عينيه . إن وجهه مرآة صافية لنفسه .

— إننى بلغتك ، ولن تخسرى شيئا إذا ما أسأت الظن به حتى تنجاب الحقيقة ويظهر المستور .

— ولكن هذا فظيع ، إن مجرد التفكير فى أنه سيتزوج يذهب بعقلى .

— ترفقى بنفسك ، فما دفعنى إلى الإفضاء إليك إلا حبى لك وخشيتى من أن يكون للخبر نصيب من الصحة ، فلو كتمته عنك حتى ينتهى الأمر لأنبنى ضميرى . وإنى أظن أنى قمت بما ينبغى علىّ على الرغم مما فى القيام به من ألم على نفسى .

— إنى لك شاكرة .

— لا تجعلى الغضب يتملكك ، ولا تثورى ولا تظهرى ريبتك ، وارقبى كل شىء بانتباه .

— سأحاول .

وخرجت الصديقة بعد أن أضرمت نار الغيرة فى صدر الزوجة وتركتها وحيدة لفكرها ، فاستبد بها وأخذ يؤجج نار الشك فاندلع لهيبه واستمر يلسعها لسعا قاسيا فتأوهت ، واستمر فكرها فى تعذيبها فضاق صدرها بتلك النار التى تنهشها . وأحست به قد ضاق بما يعتمل فيه من أحاسيس وأنه يكاد ينفجر ، وأرادت أن تسكب دموعها لتطفئ ما يشتعل فى صدرها ولكن ما بال دموعها قد تحجرت فى مآقيها وعهدها بها سريعة الجريان ؟ وبلغت نار صدرها حلقها فشعرت بجفاف فيه قاتل ، وسرت النار حتى بلغت وجهها فارتفعت حرارتها وأحست كأن دمها يكاد ينبثق . ومر الوقت وئيدا رهيبا ، وتمنت أن يعود زوجها سريعا ليريحها من عذابها وينقذها من فكرها الذى شن

حربه وأخذ يطعنها طعنات تمزق قلبها وتحرق كبدها .

استمرت الزوجة فريسة لأفكارها يقلقها الشك ويعذبها الفكر . وبلغ الضيق بها منتهاه فراحت تقطع غرف الدار قلقة مضطربة تتطلع إلى ساعة الحائط بين الفينة والفينة . إنه تأخر اليوم عن موعده وما كان ليتأخر ، فهلا يعود فيقضى على قلقها ويريحها من فكرها ؟ ولكن هتف بها فكرها : « إنها لا تخطر له على بال الساعة ، فإنه هناك مع حبيبة القلب ينعم بقربها ويسعد بعطفها » . فازداد عذابها وارتمت على مقعد قريب ضيقة الصدر تحس اختناقا ، فراحت تزفر بشدة وتلتقط الهواء بصعوبة ، واحتلت الغصة حلقها وتصلبت عضلات فمها . إنها لتود أن يعود الآن لترتمى فى أحضانه ولتلقى برأسها على صدره ولتنخرط فى بكاء طويل ينفس عما اختزن فى صدرها من أحاسيس كادت تقضى عليها .

وسمعت طرقا على الباب فعلمت أنه قد عاد ، فشعرت بفرح ممزوج برهبة . إنها فرحة بعودته خائفة مما قد تقرأ فى عينه . وبدلا من أن تهرول نحو الباب وتفتحه وترتمى فى أحضان زوجها وتنخرط فى البكاء كما كانت تتمنى من لحظات فقد تثاقلت فازداد الطرق ، فنهضت متصنعة التراخى وفتحت وقد قطبت جبينها وعبست ، فدخل زوجها يدندن وقد ظهر البشر فى وجهه ، فانقبض صدرها وسألته فى غضب :

ــ ما بالك تأخرت الليلة ؟

ــ قابلت بعض الأصدقاء وأخذنا فى الحديث فانقضى الوقت دون أن نحس به .

ودخل غرفته وخلع ملابسه وهو يصفر لحنا مفرحا ، وخرج يهز رأسه طربا فألفى زوجه لا زالت مقطبة فقال لها :

ــ مالك ؟

— وهل أهمك ؟ لو كان لى عندك وزن لما تركت الكلبة وحدها تنتظرك حتى الساعة .

— أكل هذا الغضب لأنى تأخرت قليلا ؟ تعالى ولا تغضبى .

واقترب منها ولف ذراعيه حول خصرها ووضع ذقنه فوق رأسها وأخذ يداعبها ، فكادت نفسها تصفو واستسلمت لدعاباته . ولكن رن فى أذنها صوت صديقتها : « إنهم ليبالغون فى تدليلنا إذا ما أخطئوا فى حقنا ليخفوا عواطفهم الحقيقية نحونا » . فأحست دمها يفور فى عروقها ففكت ذراعيه الملفوفتين حولها بخشونة ونفرت منه وهى تغمغم :

— دعنى ... دعنى .

فنظر إليها نظرة استنكار ، ثم اقترب منها وقبض على ذقنها بيده ونظر فى عينيها وقال لها :

— قولى ما بك ؟

فصمتت وأسبلت عينيها فسألها :

— أتشكين شيئا ؟

فتركته واتجهت إلى مقعد قريب وأشاحت بوجهها عنه فأحس ضيقا، ولكنه تذرع بالصبر وقال لها بصوت حاول ألا ينم عن غضبه :

— ماذا حدث ؟ ألا تتكلمين ؟

فظلت على صمتها وعبوسها فجلس على مقعد آخر وأطرق . وانقضت مدة وهما فى إطراقهما وصمتهما ، ثم رفع رأسه وراح يصفر فغاظها منه ذلك وحسبت أنه تعمد إغاظتها ، وحاولت أن تكبت ما تحس به ولكنها لم تستطع فانفجرت صائحة :

— ألا تكف ! إنك تحطم أعصابى .

— وأنت ألا تخرجين عن هذا الصمت ، إنك تضايقيننى .



لو كان لى عندك وزن لما تركت الكلبة تنتظرك حتى الساعة

فأجهشت بالبكاء وقالت والعبرات تخنقها :

ـــ أضايقك ؟ أجل أضايقك . إنى أحس ذلك لقد ضقت ذرعا بى ، أصبحت حملا ثقيلا عليك تود أن تتخلص منى . سئمتنى .. قل إنك سئمتنى .

فنهض عن مقعده واتجه إليها ووضع يده على كتفها ، وما إن أحست يده حتى هبت واقفة وتركته ودخلت غرفتها وارتمت على سريرها تبكى وتنتحب .

* * *

أقلعت حمامة السلام فى أعقاب تلك الليلة وتركت عش الزوجية لأعاصير الغيرة وزوابع الخصام ، فما كان يوم يمر دون شجار لأتفه الأسباب فأصبحت الدار جحيما لا يطاق . وكان الزوج يعجب فى نفسه لهذا التغير الذى طرأ على زوجته دون أن يدرى له سببا ، وكان يتسامح معها كثيرا ويتحمل كثيرا لعل يثوب إليها الرشاد ولكنها تمادت فى الشجار ، فما كان منه إلا أن كان يقابل الأذى بالإيذاء . لقد علم أن غيابه عن البيت يؤلمها فتمادى فى الغياب فارتقى شكها حتى اقترب من مرتبة اليقين ، إنه يؤذيها لأنه وجد غيرها وأصبحت بالنسبة إليه لا شيء . إنها أصبحت فى حالة من القلق وإنه لخير لها أن يواجهها بالحقيقة من أن يتركها فريسة لأفكارها التى لا ترحم ، وإنها لتحس نفسها تدمى ، ولتحس عقارب الغيرة تمزق قلبها تمزيقا . لقد نال منها الفكر حتى هزلت وصارت كالخيال ، ستصفعه بالحقيقة وستصرخ فى وجهه : « إنك ستتزوج » . فتطلق ذلك الخبر الذى حبسته فى نفسها فعذبها وأضناها . ستجابهه بالحقيقة فإن وقوع البلاء أهون من انتظاره .

وعاد الزوج فى الثلث الأخير من الليل فوجد زوجه مقطبة متأهبة

للنضال ، فاستعد ليرد الصفعة صفعات . لقد عودته على أن يهينها فاعتاد ، وابتدأت الزوجة فى الصياح :

— أين كنت .. أين كنت حتى الآن ؟

— هذا من شأنى ولا يسأل الرجل أين كان .

— أصبحت الحياة معك لا تطاق ، والله إن الحياة معك حرام .

— ما الذى يضطرك إلى هذه الحياة ؟

— حقا ما الذى يضطرنى إلى هذه الحياة ؟ سأترك لك الدار ، أجل سأتركها لك . ولكن لا ، لن أتركها لتحل هى فيها مكانى .. لن أتركها أبدا .

— من هى التى تحل فيها مكانك ؟

— لا تحاول إخفاء شىء ، إنى أعلم كل شىء ، ستتزوج .. ستتزوج ...

— ومن قال ؟

— لا تنكر شيئا ، ستتزوج. .

— ولو شئت أن أتزوج فما الذى يمنعنى من الزواج ؟

— لن يمنعك شىء ، ولكنى لن أمكث معك بعدها دقيقة واحدة .

— ولكنى لن أتزوج ، وما فكرت فى الزواج .

واقترب منها وقد عقد العزم على أن يعمل على إزالة تلك الفكرة التى استولت عليها وأقلقتها ، ولكنها صاحت فيه :

— بل فكرت فى الزواج ، وعزمت عليه لأنك تتمنى ولدا ، ولكن اعلم أن العيب ليس عيبى ، إن العيب فيك ، العيب عيبك .

فأحس دمه يفور وأعصابه تضطرب وزمام أمره يفلت منه ، فيصيح دون وعى :

ـــ سأتزوج ، وسأثبت لك أن العيب فيك وأنك عاقر .

فأجهشت بالبكاء ، وتركت المكان ودخلت غرفتها وأغلقت خلفها الباب ، ومرت برهة عاد بعدها إلى الزوج هدوءه ، واستعاد فى ذهنه ما نطق به فى غضبه فألفى نفسه قد طعنها طعنة فى الصميم . ولو أنها طعنته بمثل ما طعنها به إلا أنه رجل يتحمل الطعنات وينسى الإساءات وهى أنثى لن تنسى له أبدا ما فاه به ما دامت على قيد الحياة ، وأراد أن يداوى ما سببه الكلام من جراح فاتجه إلى الباب الموصد فى وجهه ووقف أمامه وقال :

ـــ افتحى .. افتحى إنى آسف ، ما كنت أقصد ولكنك بدأت السباب . افتحى .. والله ما فكرت فى الزواج من غيرك ولا خطر لى الزواج على بال .

ولكنها لم تفتح و لم تصدق قوله و لم تفكر فى أن تقبل عذره ، وظل الباب موصدا .

* * *

ومرت أيام والخصام مستمر والنفور مستمر ، وما استطاعت الزوجة أن تنسى إساءته أبدا . وكانت كلما همت بالنسيان تذكرت قوله لها إنك عاقر ، فتزداد حقدا وغلا .

وسقط الزوج يوما فريسة لمرض عضال فأخذت الزوجة تسهر عليه ، وازداد المرض على الأيام فساورها قلق ، وخطر الموت على بالها فارتجفت . إنها لتخشى أن يخطفه منها فيحرمها منه إلى الأبد . وتمنت شفاءه ولكنها تذكرت غريمتها ، فلئن أبل من مرضه فستخطفه تلك وتتركها لنار الغيرة تعذبها وتكويها ففزعت وصارت نهبا لأفكارها . إنها بين أمرين أفضلهما مر ، إنها ستفقده فى كلا الحالين ، ستفقده إذا مات وستفقده إذا برىء ، والخير لها أن تفقده ميتا من أن تفقده حيا تعذبها فكرة غريمتها دواما . أجل إنها لتتمنى أن يموت قبل أن

يتزوج غيرها فلنار الغيرة أشد إيلاما من نار الترمل ، فما أسرع أن تجر الأيام ستار النسيان على الموت .

وثقلت وطأة المرض على الزوج فلم يحتملها فقضى نحبه ، فأحست الزوجة حزنا خفيفا ما لبث أن تلاشى وحل مكانه راحة وهدوء ، ووقفت تتلقى عزاء الناس ناعمة البال مطمئنة النفس ، فقد مات وهو لها ، لها وحدها .



صَديقي الوطني الباسِلُ

فى ليلة من ليالى الصيف خرجت أضرب فى شوارع القاهرة على غير هدى لا أقصد جهة بعينها ، وكان كل ما أبغى أن أقطع الوقت وأقتل الملل الذى استولى علىّ أخيرا . فما ابتدأت فى قراءة كتاب حتى ألقيت به سريعا ، وما هممت بكتابة شىء حتى ألقيت بالقلم ضجرا ، فرحت أنتقل من شارع إلى شارع . وكثيرا ما كنت أجد نفسى فى شوارع لا أعرف أسماءها ولكنى ما كنت أخشى أن أضل ، فالقاهرة « حلة وأنا مغرفتها » . ودلفت إلى شارع من الشوارع الفخمة ، وانطلق خيالى كعادته يهيم فى دنياه وغبت عما حولى برهة . وفيما أنا سائر وضعت يد على كتفى فهبطت من سماء خيالاتى والتفت خلفى ، فرأيت صديقا من أصدقاء الكلية وقد انفرجت شفتاه وظهرت أسنانه ومد يده فصافحته فى شوق وكانت عيناى تتفرسان فيه . فقد تغيرت هيئته فى السنين القليلة التى لم أره فيها ، فقد امتلأ جسمه وبرزت كرشه وظهرت عليه آيات النعمة فقد لاح لعينى أنه أبيض مما عهدته . وكانت ملابسه لا تقارن بما كان يرتديها فى الكلية ، فبقدر ما كانت ملابسه بسيطة متواضعة بقدر ما صارت فخمة . ولم يدم صمتنا طويلا فقد هتف صديقى بسرور :

— أهلا .. أهلا .. أين أنت ؟

— فى الدنيا .

— وإلى أين ؟

— إلى الدنيا .

— تعال معى إلى النادى .

— والله ...



فقد امتلأ جسمه وبرزت كرشه وظهرت عليه آيات النعمـة

ـــ تعال .

وجذبنى من يدى فسرت معه ، وراح يسألنى عن عملى ويتحدث فى ثقة واطمئنان ، وبلغنا مبنى فخما فتأخر وقال لى :

ـــ تفضل .

فأفسحت له الطريق وقلت :

ـــ بعدك .

ـــ لا والله تقدم ، أنت ضيفنا الليلة .

فتقدمت واجتزت بابا كبيرا ودخل صديقى خلفى ، وما إن وقع نظر بواب النادى عليه حتى هب واقفا وحياه مبالغا فى الاحترام ، فرد صديقى التحية بطرف أصبعه . وبلغنا درجا رخاميا واسعا فصعدنا متمهلين ، وقابلنا أناسا صاعدين وهابطين وكانوا جميعا يفسحون للصديق الطريق ويحيونه فى احترام ، فعجبت وخيل إلىّ أن صديقى أصبح شيئا مذكورا . ودخلنا إلى ردهة واسعة مؤثثة برياش فخم فانطلق صديقى وأنا معه حتى بلغنا صدر المكان فجلس وأجلسنى بجواره والتفت إلىّ وراح يتحدث عن ذكريات الكلية . وأقبل بعض الشبان فلما لمحوا صديقى وفدوا عليه وسلموا فى خضوع ولم يرفعوا أبصارهم إليه كأنما هم فى حضرة عظيم جليل القدر . وأشار إليهم أن يجلسوا بجواره فجلسوا وقد ظهر البشر فى وجوههم فكأنما نالوا خيرا كثيرا ، والتفت الصديق إليهم يحييهم فوجدت فرصة لأجول بعينى فى المكان فرأيت صورة زعيم من الزعماء السياسيين معلقة ، فأيقنت أننا فى نادٍ سياسى مشهور كثيرا ما سمعت عنه فى أثناء المظاهرات ، وما عرفت النادى قبل وقوع عينى على صورة الزعيم لأنى لا أفقه فى السياسة لا كثيرا ولا قليلا لدرجة أنى لا أعرف من وزراء أية وزارة عادة إلا رئيسها وعضوا أو عضوين من أعضائها ـــ أقصد وزيرا أو وزيرين .

ودار الحديث حول السياسة والسياسيين فلم أفهم شيئا وضقت ذرعا وهممت بالانصراف ، ولكن دار الحديث دورة لذيذة جعلتنى أعدل عما فكرت فيه ، فإن صديقى ابتدأ يقص على مريديه — هكذا خيل إلىّ — نوادر شجاعته ، فراح يقول : « ما أكثر مواقفنا الوطنية المشرفة . إن الوطن فى حاجة دائما إلى من يبيعونه نفوسهم . إنى لأذكر حوادث كثيرة تأرجح الموت فيها فوق رءوسنا وفغر فاه ليبتلعنا ، ولكنا كنا فى كل مرة ننجو بأعجوبة . حتى صرت أعتقد أن الموت يرهب من لا يرهبه . عقب تصريح مستر هور قمت فى الطلبة خطيبا أندد بالتصريح وأحضهم على الثورة ، فثار الطلبة واندفعوا إلى باب الكلية كبحر زاخر لينطلقوا فى شوارع القاهرة يهتفون بسقوط هور وتصريح هور . وما إن بلغوا الباب حتى ألفوا الجنود قد أحاطوا بالكلية يمنعون الطلبة من الخروج ، فثارت ثائرتنا وجن جنوننا فأخذنا نخلع ما تصل إليه أيدينا ونقذف الجنود به . ورأى الضابط الموكل بالقوة المحاصرة أننا سنظهر عليهم فأمر جنوده أن يطلقوا النار إرهابا . فما دمدمت الرصاصات حتى فار الدم فى عروقنا وأخذنا نقذف الجند بالحجارة ، فأمر الضابط جنوده باقتحام الباب فاقتحموه ودخلوا وضابطهم أمامهم شاهرا مسدسه ، فلما رأى الطلبة هجوم الجند المسلحين وهم عزل فروا إلى فصولهم وبقيت فى فناء الكلية وحدى أتميز غيظا لانتهاك حرمة الكلية . أيجوز أن يدخل الجنود جامعا أو كنيسة وهم شاهرو السلاح ؟ بالطبع لا .. فكيف يجوز لهم أن يقتحموا كلية من الكليات وهى لا تقل قداسة عن المساجد والكنائس ؟ غاظنى منهم ذلك وانطلقت إلى الضابط الشاهر مسدسه ، ولما اقتربت منه فتحت له صدرى وصحت فى وجهه : « هاكم صدرى فاضربوا . كيف تنتهكون حرمة الكلية ؟ كيف تجرؤون ؟ » فأرخى الضابط مسدسه والتفت إلى جنوده وأمرهم بالانسحاب السريع ، فخرجوا من الكلية وأنا واقف فى الفناء وحدى كالمذهول .

وتفرس صديقى فى وجوه الحاضرين فألفى الانتباه الشديد قد ارتسم على محياهم ، وقد شخصت أبصارهم إليه وكأنما تعلقت بشفتيه ، فسره ذلك وأرضى غروره وشجعه على أن يخوض فى حديثه المحبب إلى نفسه ، فألقى بجسمه إلى الخلف وأسنده إلى مسند المقعد الوثير وقال : « وإنى لأذكر حادثة أخرى زاملنى فيها الصديق (والتفت إلىّ فتخضب وجهى بدم الخجل) . فى سنة من السنوات التى عطل فيها دستور الأمة كانت الجامعة أول من هبت للمطالبة بإعادة الدستور الصحيح ، ولما كانت كليتنا بعيدة عن الجامعة فقد خرجت قاصدا الجيزة ، وقابلت فى الطريق الصديق العزيز (والتفت إلىّ مرة أخرى) وعرضت عليه مصاحبتى فوافق ، فانطلقنا حتى بلغنا حرم الجامعة وكانت قلوبنا تخفق حماسة فى صدورنا ، ورأينا جموع الطلبة ثائرة والخطباء يخطبون ، ونزل خطيب عن منصته فلم أشعر إلا وأنا على المنصة وكأنما قوة خفية دفعتنى إليها ، وارتجلت خطبة فخرجت الألفاظ ملتهبة كأنما كانت ذوب نفسى ، فهزت القلوب ولعبت بالعقول وأطلقت الهتافات الحارة من الحناجر ، وقبل أن أزايل مكانى هتفت :

ــ إلى الثورة .. إلى الثورة .

فجلجلت الأصوات وزلزل المكان وانطلقت الجموع الزاخرة تهتف : « تحيا الثورة » . وتدفق الطلبة فى شارع الجيزة كنهر اجتاح سده وهتفوا بسقوط الوزارة ، واستمررنا فى سيرنا قاصدين قلب القاهرة ، ولكن ما إن بلغنا كوبرى عباس حتى وجدناه مفتوحا فوقفنا حيارى لا ندرى ما نفعل . وقفزت إلى رأسى فكرة فاخترت ثلاثة وكان الصديق منهم (والتفت إلىّ) فأنطلقنا وأخذنا زورقا وجدفنا حتى بلغنا الجهاز الذى يحرك الكوبرى فأدرناه ، فأخذ الكوبرى يتحرك ونحن نهتز طربا . وأخيرا تمكنت المظاهرة من العبور فقفلنا بزورقنا عائدين وقفزنا إلى الشاطئ ورحنا نعدو لنلحق بإخواننا ، وما إن لحقنا بهم حتى وجدنا جنودا قد انقضوا على المظاهرة

بالهراوى يحاولون تشتيتها ، وهوى جندى بهراوته على رأس طالب بجوارى ، وفى نفس الوقت دمدم الرصاص ودوى فى المكان وسقط طالب مجدلا ، ففر الجميع وهممت بالفرار إلى ملجأ يحمينى من الرصاص المتساقط ، ولكنى ارتطمت بالطالب الذى أصابته الهراوة وسقط بجوارى ففكرت فى حمله وإبعاده عن الرصاص الطائش ، فنسيت نفسى ولم أفكر فى الموت الذى يرفرف فوق رأسى وحملته على ظهرى وعدوت به إلى أقرب دار ودخلتها . وصعدت به الدرج مسرعا ثم طرقت باب أول شقة قابلتنى ففتحت سيدة كريمة طيبة . ما إن رأت حملى حتى أسرعت وساعدتنى على حمله وانطلقنا إلى مقعد طويل مددناه عليه ، ثم عادت السيدة إلى الباب وأغلقته وأحكمت إغلاقه وأخذت أخلع ملابس المصاب وأجريت له الإسعافات اللازمة حتى فتح عينيه . وبعد قليل أقبلت السيدة وهمست فى أذنى : « حوصر البيت ويجرى تفتيشه » . فلم أرتجف بل غمغمت : « فليكن ما يكون ففى سبيل مصر كل شيء يهون » . وجلست بجوار المصاب أرفه عنه ، وخطر لى خاطر : « إنى لا أهتم بما يكون ولكن هذا المصاب ما يكون مآله ؟ وأطرقت برهة وقفزت إلى رأسى فكرة ، فاتجهت إلى السيدة وقلت لها : « إنى يا سيدتى لا آبه للقبض على ، وإنى سأخرج الآن حتى لا يقبض علىّ عندك وحتى لا أسبب لك المتاعب ، لقد كان بودى أن أحمل المصاب معى ولكنى لا أود أن أحمله ما لا يطيق ، أفلا تتكرمين وتأذنين بنقله إلى السرير فإذا ما رأوه حسبوه قريبا لك مريضا ؟ » فابتسمت السيدة وربتت على كتفى وأقبلت وحملنا المصاب إلى السرير ، ولما اطمأننت عليه التفت إلى السيدة وقلت لها : « وداعا يا سيدتى وألف شكر » . وانطلقت إلى الباب ولكنها أسرعت إلىّ وحالت بينى وبين الخروج وهمست : « لا تخرج .. لا تخرج .. سيلقون القبض عليك » . فقلت : « وما فى ذلك ؟ دعينى بربك ولا تحرمينى هذا الشرف العظيم » .

فغمغمت : « لا تخرج » . فأجبتها وقد بان العزم فى وجهى : « بل سأخرج ولن يقبضوا علىّ عندك » . ولما رأت عزمى قالت : « سأهبط معك حتى تمر من الحصار بسلام » . فيا لها من فكرة ويا لها من سيدة نبيلة ، وفتح الباب وهبطنا فى الدرج ورحنا نتحادث دون أن نلتفت إلى الجنود الصاعدين أو الهابطين . وخرجنا إلى الطريق فألفينا نطاقا من الجند حول الدار فاجتزنا النطاق بسلام ، وسارت معى حتى ابتعدنا عن الخطر فمددت لها يدى وصافحتها وأنا أقول : « إنى مدين لك بالشىء الكثير فأكرر لك شكرى » . فصافحتنى وهى تبتسم وقالت لى : « انطلق فى حفظ الله يا بنى » .

وارتسمت على وجه المحدث ابتسامة زهو راح ينقل عينيه فى وجوه السامعين ، واعتدل فى مقعده ليستأنف حديثه ، ولكنى قمت واستأذنت فى الانصراف فأذن لى بعد إلحاح ، وصافحنى بحرارة وهو يقول :

— لقد عرفت النادى فأرجو أن أراك كثيرا .

فخرجت أتمتم وقد ابتسمت ابتسامة باهتة لا مدلول لها :

— بإذن الله .. إن شاء الله .

خرجت من النادى وانطلقت فى الطريق فألفيت نفسى أفكر فى حديث الصديق وأبتسم ، فقد صار صديقى وطنيا باسلا يروى مغامراته . ورحت أتذكر الحوادث كما وقعت فلم أجد للحادثة الأولى أصلا ، وكل ما أذكره أن زميلا لنا كان خطيبا ، فكان إذا ما مات طالب من طلاب الكلية اقترح إقامة حفلة تأبين لتتاح له فرصة الثرثرة ، فكان فى كل مناسبة — أظن فى ثلاث مناسبات — يقف ليروى وطنية الفقيد فيذكر الحادثة على أنها وقعت للمرحوم ، ثم يفتح صدره ويصيح كما صاح الفقيد فى الجنود : « هاكم صدرى فاضربوا » . ثم يخرج منديلا يمسح به دمعة متوهمة . هذا كل ما أذكره عن « هاكم صدرى فاضربوا » . أما الحادثة الثانية فإنى أذكرها فقد كنت أحد

بطليها حقا ، ولكن لم أكن بطلا من الطراز الذى وصفه الصديق بل كنت بطلا من طراز آخر . ففى يوم من الأيام بلغنا أن الجامعة ستضرب عن العمل فرأيت أن الفرصة سانحة للتهريج ، فخرجت لأشاهد الإضراب من بعيد ، وقابلت الصديق الباسل فسألنى عن وجهتى فأخبرته أنى ذاهب إلى الجامعة لأشاهد ما يفعله إخواننا وعرضت عليه مصاحبتى . فرفض وقال لى : « مالك وهذا ؟ تعال » . فألححت عليه وجذبته من يده فانطلق معى كارها ، وفى الطريق أعرب لى عن مخاوفه وقال لى إنه يخشى أن يفجأنا البوليس . فقلت له : « لا تخف ، إذا سارت المظاهرة سرنا فى وسطها لا فى المقدمة ولا فى المؤخرة ، فإذا ما وقعت الواقعة ودهمنا الجنود من الأمام أو من الخلف كان فى مقدورنا أن نزوغ دون أن نصاب بشىء » . فأظهر إعجابه بالفكرة ، وبلغنا الحرم الجامعى واستمعنا إلى الخطباء ثم تحركنا مع المتظاهرين ، وسارت فتيات الجامعة فى وسط المظاهرة فكأنهن فطن بغريزتهن إلى أن الوسط آمن من الطرفين ، أو لعلهن وصلن إلى هذا بتفكيرهن كما وصلنا نحن إليه بتفكيرنا . فسرنا ذلك فانطلقنا مطمئنين ، و لم نكتف بالفتيات السائرات أمامنا بل رحنا نتطلع إلى الشبابيك ونتفرس فى الفتيات اللاتى أسرعن ليشاهدن المتظاهرين . وتوقفت المظاهرة وقيل إن جسر عباس مفتوح ، فانتحينا أنا وصديقى الباسل مكانا قصيا وفكرنا أكثر من مرة فى أن نتجنب الشر ونعود من الطريق الآخر ، ولما هممنا بالعودة تحرك الكوبرى ومر المتظاهرون وجرفونا معهم ، فمررنا وقد أسلمنا أمرنا لله . وسرنا قليلا ولاح لنا رجال البوليس بملابسهم البيضاء وفى أيديهم الهراوى تخلخلت مفاصلنا . والتفت إلى الصديق وقال بصوت مرتعش : « أعجبك ! » . فلم تتحرك شفتاى فقد كان الخوف يتملكنى ، و لم تمض لحظات حتى أحسسنا حركة فى الصفوف الأولى ثم إدبارا وفرارا ، فتأهبنا لنطلق سيقاننا للريح . ولكن قبل أن نتحرك رأينا الجنود قد

اختلطوا بنا وإذا بهراوة ترتفع وتهوى على رأس طالب منا قريب ، ودمدم الرصاص فذهلنا فأسرعت أنا وصديقى إلى الطالب المصاب لنحتمى به ولنجعله درعا نتقى به الضربات . ودوى الرصاص فى المكان فراح كل يجذب المصاب إليه ، ورأيت صديقى يحمله على ظهره ليتدرع به ، وليتلقى عليه الضربات الطائشة . وراح يعدو فلم أجد بدا من الالتجاء إلى أقرب شارع وأخذت أعدو وأعدو وأنا لا أدرى أين أقصد، وأخيرا لمحت تراما فعدوت خلفه وركبته مبهور النفس زائغ البصر .

وفى اليوم التالى قابلت الصديق فعاتبنى أشد العتاب وقص علىّ بقية قصته ، لا كما قصها اليوم ، بل كما وقعت دون أن يزركشها الخيال وكانت الدموع تترقرق فى عينيه وهو يقص . قال : « حملت المصاب ودخلت به بيتا وألقيته على الدرج ولم ألتفت إليه ، ورحت أفكر فى حالى وإذا بباب يفتح وتخرج منه سيدة كريمة ، وما إن تقع عيناها على المصاب حتى تسرع إليه وتحاول حمله ، فوجدت الفرصة سانحة للاختباء فحملته معها ودخلت عندها وأغلقت الباب خلفنا . وأخذت تسعف المصاب ومر الوقت وأنا سجين أتميز غيظا ، وانتهت السيدة من إسعافه والتفتت إلىّ ورأت الفزع مرتسما على وجهى فراحت تطمئننى ، ولكن من ذا الذى يطمئن والجنود صاعدون هابطون فى الدرج ؟ وكأنما رثت لحالى وأشفقت علىّ فعرضت على أن تمررنى من الحصار فهممت بأن أقبل يدها ، ولكنها قالت : « هدئ من روعك يا بنى وإلا فطنوا إليك » ، وخرجت معى وراحت تحدثنى وتبتسم وقلبى يدق دقا حتى خشيت أن يفضح أمرى ، وخرجت من الحصار المضروب على الحى فشكرتها وأطلقت لساقى العنان فأخذت أسابق الريح حتى قطعت المسافة بين جسر عباس ودير النحاس فى نفس واحد . ثم أردف : « ألا لعنة الله عليك ، كنت سأذهب فى شربة ماء » .

استعدت الحادثة فى خيالى كما وقعت فانفرجت شفتاى برغمى وغمغمت : « يا له من خيال خصب ، إنه ليصلح أن يكون قاصا ، ولكن ماذا كان يستفيد لو أنه كان قاصا ؟ لا شيء ، إنه هكذا أفضل ، ممثل بارع يلعب دوره بمهارة ويلبس ثياب البطولة ، ولن ينقضى كثير وقت حتى يخطر فى ثياب الزعامة ! » .



على كل لون

ارتفع صياح باعة الصحف معلنا تشكيل الوزارة الجديدة وراح الناس يقرءون الأخبار ويعلقون عليها ، وأظهر الجميع سرورهم وراحوا يخوضون فى الوزارة المستقيلة وينعتونها بكل نقيصة . وكان الموظفون أكثر المتحمسين للوزارة الجديدة وأخذ يهنئ بعضهم بعضا ، وأتيحت للتلاميذ فرصة الزوغان فلم يتركوها تفلت فحملوا أعلامهم وركبوا الترام وانطلقوا لتهنئة الوزارة المنقذة . وبلغ الترام دار السينما فالتفت التلاميذ بعضهم إلى بعض ثم ترك معظمهم الترام ويمموا صوب السينما وأسرعوا حتى لا تفوتهم حفلة الساعة العاشرة . واستأنف الترام سيره يحمل فلول المتظاهرين إلى لاظوغلى ليحيوا الوزارة مع المحيين . وأقبلت الهيئات تحمل أعلامها ، وارتفع الهتاف بسقوط الظلم وبحياة العهد الجديد حتى بلغ عنان السماء . وخرج رئيس الوزراء لتحية المهنئين فدوى التصفيق واستمر الهتاف حتى بحت الأصوات ، وانصرف الجميع والكل يأمل أن يناله خير فى ظل العهد الجديد .

ووقفت سيارة الوزير الجديد عند باب وزارته فخف الموظفون المنتظرون تشريفه عند الباب إلى السيارة وامتدت مئات الأيدى تفتح بابها ، وهبط الوزير فالتفوا به وراحوا يصافحونه وقد ارتسمت ابتسامات عريضة على وجوههم وبان الحبور عليهم ولثموا يده ؛ وسار الوزير فساروا خلفه خفافا ظرافا مستبشرين فرحين ، بلغ باب مكتبه فامتدت مئات الأيدى لفتح الباب ، واستقر الوزير فى مكتبه وابتدأت الوفود تترى هاتفة بحياة الوزير الجديد ، ودخل موظف أنيق وتقدم نحو الوزير وصافحه وانحنى حتى كادت جبهته تلثم الأرض ثم اعتدل وقال: إن سرورنا اليوم يا معالى الوزير لا يعدله سرور، ولولا علمنا أن معاليكم لا يحب تعطيل العمل والمظاهر الكاذبة لتركنا جميع الموظفين

يدخلون لتهنئة معاليكم وإظهار عواطفهم الجياشة . إنهم يا معالى الوزير يزجون إلى معاليكم تهنئتهم الخالصة ، ويشكرون الله أن هيأ لهم وزيرا عادلا شهما كريما نزيها أبيا مثلكم .

ولم يكن هناك موظف واحد على مكتبه عندما كان عباس ذلك « الموظف اللبق الأنيق » يقدم نفسه إلى الوزير بظرف وكياسة . فقد كان جميع موظفى الوزارة فى غرفة الوزير .

واستمرت الوزارة تعج بالمهنئين من كل لون كأنما أصبحت الوزارة معرضا من المعارض أو مولدا من الموالد . وأخيرا هدأت الحال وراح الوزير يفكر فيمن يسند إليه إدارة مكتبه فراح يستعرض فى ذهنه من يثق فيهم ، فرأى أن عباس أكفأ من يصلح لهذا فهو شاب نشيط مثقف مخلص ، رجل يعتمد عليه فعينه مديرا لمكتبه .

كان عباس طويل القامة ضخم الجسم عريض الكتفين قمحى اللون ، إذا تكلم تكلم بصوت هادئ . وما كان يضحك أبدا أو يمازح أحدا بل كان يتخذ هيئة الجد وكان طابع الوقار يدمغه ، وقد كانت ضخامة جسمه من دواعى هيبته واحترامه . ومما ساعد على توقيره أننا سطحيون نحكم بالظواهر وإن ظاهره ليدل على رجولة ونضج مكتملين . وقد كان عباس قوى الحجة يستطيع أن يقنع محدثه ويستولى عليه بسهولة ، وهناك مثل عامى يقول : « كل طويل هبيل » ، ولكن هذا المثل لا ينطبق على عباس فإنه ماكر أمكر من ثعلب ، يتظاهر بالبراءة والطهر والصراحة ويتقن تمثيل ما يتظاهر به حتى ليخال أعرف الناس بأخلاقه أنه صادق . ولعباس القدرة العجيبة على إيهامك أنك صديقه الوحيد بطريق غير مباشر دون أن يثير ريبتك أو يحرك شكوكك ، وهو يكيد لك ويوهمك أن هذا الكيد فى صالحك ، وهو أنانى لأقصى حدود الأنانية فما كان يتورع عن أن يصعد على أكتاف الآخرين ،

وما كان يستنكف من أن يستعمل أقذر الوسائل فى إقصاء من يظن أنهم منافسوه أو من يظن أنهم قد يصبحون منافسين له فى يوم من الأيام . وما كان يطيق أن يرى خيرا يصيب غيره فإن شعر أن غيره سيناله درجة أو علاوة عمل على عرقلتها ، ولا يهدأ له بال إلا إذا منعها . وإن نال أحدهم علاوة أو ترقية أحس ضيقا وغيظا كأنما اغتصبت اللقمة من فيه وضاع منه حق من حقوقه .

ولم تظهر أخلاق عباس هذه على حقيقتها أول ما أصبح مديرا لمكتب الوزير فإنه كان يعمل على توطيد مركزه أولا ، ولما استقر له الأمر ونال الدرجة الخامسة بان المستور وعرف الجميع أنه إنسان خطر ، لا يؤمن جانبه ، إلا الوزير فقد أيقن أنه أكفأ موظف فى وزارته . وما يهم عباس من غضب الناس إذا كان الوزير عنه راضيا ؟

وشاء عباس أن يوهم الوزير أنه يعمل ليل نهار ، فكان يعود إلى الوزارة فى المساء ولا يكتفى بإنارة مكتبه بل كان ينير مكاتب الوزارة جميعها حتى إذا سأل إنسان عما هناك وعن الدافع إلى ذلك ، كان الجواب أن عباسا يعمل لإنجاز الأعمال المتراكمة فى الوزارة . وقد رأى عباس أن توجهه إلى الوزارة ليلا قد وفر له ما كان ينفقه فى القهوة فأصبح لا ينقطع عن الوزارة حتى فى أيام العطلة الرسمية . وطغى عباس فمنع رؤساء الأقسام من الدخول على الوزير لعرض أوراق أقسامهم ، وكان يجمع أوراق الأقسام جميعها ويعرضها هو على الوزير ملمحا إلى أنه هو الذى أنجزها ونسقها .

واجتمعت لجنة شئون الموظفين وقررت ترقية عباس إلى الدرجة الرابعة .

واستقالت الوزارة وارتفع صياح باعة الصحف معلنا تشكيل الوزارة الجديدة وظهر السرور على وجوه الجميع ، وابتدأ الناس كما هى العادة ينهشون عرض الوزارة المستقيلة وينعتونها بكل نقيصة ، وأتيحت للتلاميذ فرصة الزوغان من المدرسة كما أتيحت لإخوان لهم من قبل فحملوا أعلامهم وانطلقوا لتحية الوزارة الجديدة ، ولما وصل ركب المهنئين إلى دار السينما حدث مثل



وكان يجمع أوراق الأقسام جميعها ويعرضها على
الوزير ملمحا إلى أنه هو الذى أنجزها ونسقها .

ما حدث من سنين فقد انسل معظمهم إلى السينما واستمر الباقــون إلى لاظوغلى . وهنالك اجتمعت الهيئات التى اجتمعت من قبل سنين لتهنئة الوزارة المستقيلة لتقوم بتهنئة الوزارة الجديدة ، وكانت تلك الهيئات تحمل نفس الأعلام التى كانت تحملها يوم جاءت لتحية العهد الذى ولى . وبان البشر والسرور وارتفع الهتاف حتى بلغ عنان السماء بنفس الهتاف الذى ارتفع من قبل ، بسقوط الظلم وحياة العهد الجديد . وأطل رئيس الوزارة لتحية المهنئين فدوى التصفيق واستمـر الهتـاف حتــى بحت الأصوات ، وانصرف الجميع والكل يأمل أن يناله خير فى ظل العهد الجديد .

ووقفت سيارة الوزير الجديد عند باب وزارته فخف الموظفون المنتظرون تشريفه بالباب إلى السيارة ، وكانوا نفس الموظفين الذين كانوا فى استقبال الوزير السابق و لم يزد عليهم إلا عباس ، واستقبلوه بنفس الحفاوة التى استقبل بها سلفه ، وكان فرحهم به لا يقل عن فرحهم بالوزير المستقيل . وسار عباس بجواره يبتسم ، وأقبل الموظف الأنيق و لم يطق أن ينتظر حتى يدخل الوزير مكتبه ليلقى خطبته التقليدية بل راح يقول وهم سائرون « إن سرورنا اليوم يا معالى الوزير لا يعدله سرور ، ولولا علمنا أن معاليكم لا يحب تعطيل العمل والمظاهر الكاذبة لتركنا جميع الموظفين يدخلون لتهنئة معاليكـم وإظهــار عواطفهم الجياشة . إنهم يا معالى الوزير يزجون إلى معاليكم تهنئتهم الخالصة ويشكرون الله أن هيأ لهم وزيرا عادلا شهما كريما نزيها أبيا مثلكم » . وبلغوا مكتب الوزير فأسرع عباس وفتح باب المكتب وانحنى كما ينحنى الممثل لجمهور المصفقين المعجبين ، ودخل الوزير ودخل عباس خلفه وأغلق الباب وراءه وترك جميع الموظفين فى الخارج يتميزون غيظا .

توطدت العلاقة بين عباس والوزير الجديد ، وكان لا عمل لعباس إلا السخرية من الوزير السابق واختلاق النوادر التى تدل على جهله بالعمل

وكيف كان هو ينقذه من مآزق عديدة . وفى يوم ألقى عباس نكتة رائعة عن الوزير السابق فضحك الوزير الجديد حتى كاد يستلقى من الضحك .

واجتمعت لجنة شئون الموظفين فى نفس اليوم وقررت ترقية عباس إلى الدرجة الثالثة .

ولما كان عمر الوزارات فى مصر قصيرا كعمر الورود فقد استقالت الوزارة وارتفع صياح باعة الصحف معلنا عودة الوزارة السابقة ، وابتدأ المألوف من الخوض فى الوزارة المستقيلة والفرح بالوزارة الجديدة وخروج التلاميذ بأعلامهم للتهنئة وذهاب معظمهم إلى السينما ، واتجاه نفس الهيئات ونفس الوفود إلى لاظوغلى والهتاف بنفس الهتاف وسقوط الظلم وحياة العهد الجديد . ولو أنصفوا لهتفوا « يحيا أى وزير جديد » . وأطل رئيس الوزارة على الوفود فارتفع الهتاف بحياة منقذ الشعب ودوى التصفيق ، وانصرف الجميع والكل يأمل أن يناله خير فى ظل العهد الجديد .

وعاد الوزير الذى عين عباسا مديرا لمكتبه أول مرة ففرح الموظفون وأخذوا يهنئ بعضهم بعضا ، لقد عاد الوزير الذى سيرحمهم من عباس ودكتاتورية عباس ، فقد انكشف أمره ولن يستطيع أن يلعب على الرجل مرتين ، أما تنكر مرة للوزير بعد استقالته وما فكر فى زيارته بعد ترك الوزارة مرة واحدة ؟! وكان يزوره كل يوم وهو فى الوزارة ؟ لقد بلغ الوزير ما قاله عباس عنه ولا شك فلن يمكث فى وظيفته يوما واحدا . ورحم الله عباسا وعهد عباس .

ومرت مدة ولم ينقل عباس . فتواصى الموظفون بالصبر وقالوا إن الوزير منتظر اجتماع لجنة شئون الموظفين ليقرر نقله فيها فهو كريم لا يحب أن يقال عنه إنه اضطهد أحدا . واجتمعت اللجنة وقررت ترقية عباس إلى الدرجة الثانية .

ولما انتشر الخبر كاد الموظفون يصعقون وتمتم أحدهم : « إنه يستحق . هذه عبقرية ولا شك ، يعيش فى كل عهد وينال رضا الجميع » . فقال آخر : « إنه على كل لون كصبغة الثياب » . فقال ثالث وهو يزفر بشدة لينفس عن صدره المكظوم : « إنه كحرباء له القدرة على أن يتلون بلون المحيط الذى يعيش فيه . سيعيش دواما ولن تدول دولته أبدا » .

تذييــل

بين الرواية والأقصوصة

---

١ ــ الرواية

ما هى الرواية ؟:

الرواية هى حكاية نثرية ذات أطوال مختلفة ، تتعلق بشخصية أو بشخصيات والحوادث والحركات التى تأتيها هذه الشخصيات . وقد تكون الرواية هادئة تجرى فى جو هادئ رزين ، وتروى حكاية جماعة من الجماعات خرجوا إلى الريف فى نزهة مثلا ، أو فرد من الأفراد وما يدور فى ذهنه من أفكار وما يعتمل فى صدره من أحاسيس ؛ وقد تكون صاخبة تروى قصة سفينة تحطمت على شاطئ جزيرة مهجورة ، وما يقوم به الناجون من أفعال فى تلك الجزيرة .

وعلى ذلك فالرواية دراسة شخصية من الشخصيات ، أو دراسة حالة من الحالات . وهناك مئات من الطرق لسرد الحكاية وروايتها . وفى مقدور القاص أن يكون نبيا فى روايته فيتنبأ بما سيحدث فى العصور المقبلة ، أو عالما يروى علمه ، أو نفسانيا يحلل النفوس ، أو ساخرا يسخر من الأوضاع والأشخاص . وقد يكون بعض هؤلاء أو كل هؤلاء ، فيصبح قاصا من الطراز الأول .

وعلى القاص أن يحاكى الحياة فى قصته ، فما الرواية إلا مرآة تعكس الحياة .

وليعمل القاص الذى يصور شخصيات عصره على أن يصورها تصويرا صادقا حتى تكون روايته مرآة اجتماعية ينعكس فيها التاريخ الاجتماعى ، وشخصيات العصر الذى كتبت فيه .

الذوق الفنى فى تغير مستمر :

تتبع الروايات تغير الذوق الفنى ، فكلما ارتقى الذوق الفنى ارتقت الروايات . ولما كان الذوق الفنى فى تغير مستمر ، فالروايات كذلك فى تغير مستمر . فالروايات التى سلبت لب أسلافنا لا تروق لنا اليوم ، والروايات التى تفتننا اليوم قد لا تعجبنا غدا . وآية ذلك أننا كلما قرأنا ارتقى ذوقنا ونشدنا ما هو أفضل مما يقدم إلينا . وإنا نرى اليوم أن ما يعجب به الخاصة لا يعجب العامة ، وكثيرا ما نجد اثنين يختلفان فى تقدير رواية واحدة ، وعلة ذلك أن أحدهما يحكم عليها بذوقه الفنى الذى تهذب وارتقى ، والآخر بذوقه الفنى الذى لم يتبلور بعد .

هناك روايات مفزعة كتبت منذ سنين كان قراؤها يخشون النوم عقب قراءتها ، لتأثرهم الشديد بها ولخشيتهم من أن يروا أبطالها المروعين فى أحلامهم ، فإذا ما قرأنا هذه الروايات اليوم لا يسعنا إلا أن نضحك ملء أشداقنا . وهناك روايات أخرى عاطفية كانت تدر دموع قرائها عند ظهورها ، فإذا ما قرأناها اليوم فإنها لن تحرك فينا إلا عواطف الهزء والسخرية .

الرواية ككل عمل فنى يعجز عن أن يبرز محاسنه بنفسه ، بل لا بد له من آخرين يبرزون هذه المحاسن . فالموسيقى تحتاج إلى سامع يصغى إليها فيقدرها ، والرسم الجميل يحتاج إلى ناظر يفتتن به ، ويحتاج الشعر والرواية إلى قارئ . فلولا السامع والناظر والقارئ لما كان للعمل الفنى من وجود . وعلى ذلك فالرواية أيا كانت لا وجود لها حتى تقرأ فيهبها القارئ الحياة ، وهى تعيش

فيه أثناء قراءتها فهى لذلك تعتمد عليه فى بعض صفاتها .

ما هى الرواية الجيدة ؟:

لا يوجد مقياس دقيق لمعرفة الرواية الجيدة ، فالرواية — ككل عمل فنى — يختلف الناس فى تقديرها ، وتختلف الأجيال المتعاقبة فى تقديرها . فرب رواية فشلت فى عصر من العصور ثم افتتن الناس بها عقب ذلك ، ورب رواية أخرى افتتن الناس بها و لم تتخط عتبة عصرها . وليس من السهل أن نختبر رواية من الروايات كما نختبر سيارة من السيارات أو قطعة قماش ثم نجزم بجودتها أو رداءتها عقب إجراء الاختبار . وإن الاختبار الوحيد لتقويم رواية ما هو مدى تأثير هذه الرواية فى القارىء ، فالرواية التى يعجب بها فرد هى الرواية الجيدة بالنسبة لذلك الفرد ؛ فإن عاش فيها مدة طويلة وتغلغلت فى نفسه ، وبدلا من أن تزول نمت على مرور الزمن ، فللفرد أن يطمئن إلى أنه قد عثر على رواية طيبة ، وإذا كان إعجابه برواية أعجبت الناس على مدى طويل — خمسين أو مائة سنة أو أكثر — فله أن يثق من أنه قد عثر على رواية كلاسيكية حقيقية .

ولما كانت الرواية — كما قلنا — لا تعتمد على نفسها فى إبراز محاسنها ، بل تعتمد على القارىء لتحيا فى نفسه ، فإنه يتعذر الحكم لها أو عليها بقيمتها الفنية فقط ، بغض النظر عن القارىء . فقد تكون الرواية متوفرا فيها جميع الشروط التى تجعلها رواية كاملة ناجحة ، وعلى الرغم من ذلك يكون الفشل نصيبها لا لعيب فيها بل لعيب فى القارىء الذى لم يتكون ذوقه الفنى بعد . وإن هذا لا يضير الرواية فى شىء ولا يقلل من قيمتها كعمل فنى ، ولكن الحكم لها سيتأخر إلى أن يرتقى ذوق القارىء ويستطيع تذوق ما فيها من كمال وجمال .

الشروط الواجب توفرها فى الرواية الجيدة :

مضى على أول محاولة لكتابة رواية نثرية فى إنجلترا أكثر من ٣٠٠ سنة ، وقد حاول القصاص خلال هذه الحقبة الطويلة محاولات للوصول إلى أنجع الطرق لسرد الرواية الناجحة ، وعلى الرغم من عدم الوصول إلى نتيجة حاسمة نهائية فقد أصبح للرواية شكل فنى ومميزات خاصة تميزها عن الأعمال الفنية الأخرى ، وهذه المميزات هى :

(١) حبكة الرواية .

(٢) الشخصيات الحية .

(٣) الأسلوب .

١ ــ حبكة الرواية :

حبكة الرواية هى المجرى الذى ستندفع فيه الشخصيات والحوادث حتى تبلغ الرواية نهايتها . وعلى القاص عند تصميم فكرة روايته أن يتذكر أن من شروط الرواية أن يكون لها بداية ونهاية ــ بعكس الأقصوصة كما سيأتى ذلك فيما بعد . وتكوين الفكرة وتسلسلها تسلسلا طبيعيا منطقيا يحتاج من المهارة ما يحتاج إليه صنع قطعة أثاث دقيقة الصنع ؛ فكما أن قطعة الأثاث لا تكون رائعة إلا إذا كانت كاملة الشكل متناسقة الأجزاء ، فالرواية كذلك لا تكون أخاذة إلا إذا كانت كاملة متناسقة . وعلى ذلك فعلى القاص ألا يهمل تفاصيل روايته الضرورية ، وإلا كان كصانع الكرسى الذى ينسى صنع الرجل الرابعة !

وعلى القاص عند صياغة روايته أن يبتدئ ببداية قوية أخاذة تجذب القارئ وتجعله يتبعه مشغوفا ، ويستولى عليه ويسير به فى مهارة حتى يبلغ به النهاية

الطبيعية التي تجعله يعتقد أن لا نهاية للحوادث والأفعال المروية غيرها .

وينبغي أن يكون الهدف الأساسي من سرد التفاصيل العديدة هو شرح الفكرة الأساسية ، أو تهيئة جو الرواية ، أو التشويق المقصود منه دفع القارئ إلى الفكرة الرئيسية .

قلنا إن الرواية ينبغي أن تقود القارئ إلى النهاية الطبيعية التي يقتنع أن لا نهاية للحوادث المروية غيرها ، فإن قادته الرواية إلى نهاية لا تتفق وحركات الشخصية المرسومة وأفعالها فإنها نهاية فاشلة مفتعلة وإن كانت قوية أخاذة . وإن مثل هذه النهاية لدليل على سوء الحبكة ورداءة البناء وفشل العلاج .

نوعا الحبكة :

الحبكة سواء أكانت جيدة الصياغة أم مفككة البناء نوعان : النوع الأول يعتمد على الحوادث الضخمة وتسلسلها تسلسلا أخاذا يستولى على لب القارئ ؛ وجميع روايات المغامرة والمخاطرة من هذا النوع ، والحادثة الضخمة الفخمة هي عمودها الفقري . وإن ضخامة الحوادث وروعتها تجذب القارئ وتجعله لا يلتفت إلى الشخصيات على الرغم من أنها موجودة وحية أيضا ، ولكنها ثانوية بجوار الحوادث التي تدفع القارئ إلى متابعة الرواية دفعا ، والتمتع بالعرض الذي يأخذ باللب ويبهر الحواس ، وينبغي أن تختار العناوين الأخاذة الحارة لفصول مثل هذه الروايات . ولنفتح أية رواية من روايات المغامرة لنرى عناوين فصولها ، ولتكن رواية سجين زندا مثلا لأنتوني هوب ، فسنقرأ هذه العناوين التي ستضطرنا إلى متابعة القراءة مشغوفين : « خطة يائسة .. اقتحام الفخ .. وجها لوجه في الغابة .. لو أن الحب كان كل شيء ... وهكذا » .

وإذا ما انتهينا من رواية من هذه الروايات فإننا لا نذكر شخصا واحدا بل نذكر فعالا ضخمة وحوادث مثيرة ، فمن منا يستطيع أن يتخيل بطلا من أبطال ديماس في الفرسان الثلاثة ، ولكننا جميعا نذكر فعالهم الباهرة ولا ريب .

هذا هو النوع الأول الذى يعتمد على الحادثة ، أما النوع الثانى فيعتمد على الأشخاص وما ينجم عنهم من فعال . وإنهم وفعالهم وخواطرهم وما يدور فى صدورهم كل أولئك محور الرواية الرئيسى ، وأما الحادثة فى هذه الروايات فلا تأتى لذاتها بل لتفسير الشخصيات .

ولا يفهم من هذا أن رواية الشخصيات لا تحتوى على حادثة ، فهى أحيانا قد تحتوى على حوادث عديدة ، ولكن الغالب فيها أن تكون الحادثة محدودة أو معدومة ؛ لأن القاص يوجه كل التفاته إلى الشخصية أو الشخصيات التى يحاول أن يبرزها حية ناطقة .

لو درسنا روايات الكتاب المحدثين الذين يهتمون بخلق الشخصيات فى رواياتهم لألفيناها روايات نفسية خاصة ، ولوجدناها معدومة الحادثة أو مضطربتها . وقد أصبح هم الكتاب المحدثين أن يسجلوا ما يدور بعقول أبطال رواياتهم لا ما يأتونه من أفعال . وقد تكون الحركة الجسدية الوحيدة التى يقوم بها بطل رواية من هذه الروايات هى أن يصعد الدرج أو يستلقى على مقعد طويل ، ثم يأخذ الروائى فى إبراز خواطره وخلجات نفسه ، حتى إذا ما بلغ البطل نهاية الدرج أو اعتدل فى مقعده يكون القارئ قد ألم بماضيه كله ، وعقليته وطريقة تفكيره ، وكل ما يرغب الروائى فى سرده عنه .

أصبح الكتاب المحدثون لا ينظرون إلى العالم بعيونهم بل بعيون أشخاص رواياتهم ، وهمهم الأول تحليل أفكار من يقدمون إلى قرائهم . لذلك نجدهم يسجلون آراء ليست آراءهم ، ويقولون أقوالا لا تصدر عنهم بل عن أولئك الذين يضعونهم فى بوتقتهم لتحليلهم . ويحضرنى بهذه المناسبة حادثة طريفة وقعت لصديق لى كتب قصة حديثة ، وذكر فيها على لسان شخصية جاهلة من شخصيات روايته معلومات خاطئة كما هو منتظر من مثل تلك الشخصية ، فثار أناس محترمون على هذا الخطأ الفاحش الذى وقع فيه الروائى

الجاهل فى زعمهم .

(ب) يجب أن تكون الرواية مفصلة مبسوطة :.

قد يضغط الروائى روايته فتخرج مجملة غير منشورة ولا مبسوطة ، فيكون من نتيجة هذا الإجمال أن تبتر الرواية وتصبح غير واضحة السمات غامضة الشخصيات ، وقد وقع فى هذا الخطأ بعض كبار كتابنا الذين حاولوا معالجة الرواية أخيرا ، فجاءت رواياتهم ملخصة الموضوع باهتة المعالم معدومة الشخصيات الحية أقرب إلى كتب التاريخ منها إلى الرواية الصحيحة المستوفية للشروط الضرورية للرواية الناجحة . إنهم بدلا من أن يعالجوا حادثة بسيطة فى كتيباتهم علاجا صحيحا ، قد حشدوا الحوادث حشدا وجيشوا الأبطال تجييشا وكدسوا كل ذلك فى كتيب ينوء بجزء من هذا ، فكيف له أن يتسع لكل ما حملوه ؟!

إننى كلما قرأت أحد هذه الكتيبات خطر لى أن كتابها عندما كانوا يكتبونها كانوا يظنون أن النجاح أكيد كلما أتوا بأسماء رنانة وشخصيات مبرزة ، فجلبوا لها من الأسماء ألمعها ومن الحوادث أكثرها دون أن يعنوا بتسلسل الحوادث المنطقى — وللخيال منطقه — أو أن يهتموا بإبراز شخصية واحدة من الشخصيات العديدة الميتة اللامعة الأسماء إبرازا فنيا ينبض بالحياة ويدوم على الأيام .

(جـ) فن خلق جو الرواية :

على القاص أن يعمل عند بناء روايته على خلق الجو الذى ستجرى فيه حوادث الرواية ، وبالوصف الجيد يخلق الجو . ولا ضير فى أن يستغرق هذا الخلق فصلا بأكمله فليس لنا على ذلك أى مأخذ لو نجح القاص بعد ذلك فى تهيئتنا للجو الصحيح للرواية . إن أقصى ما نطلبه من القاص أن يبذل

قصارى فنه لنندمج معه فى جو روايته ، فإذا كانت روايته تجرى فى عصر فرعونى مثلا فليعمل على نقلنا إلى جو ذلك العصر وليجعلنا نحس أننا نعيش فيه ؛ فإذا ما نسينا أنفسنا ونحن نقرأ وعشنا فعلا مع أبطال الرواية فى ذلك العصر السحيق ، كان ذلك دليلا على نجاح القاص فى خلق جو روايته . وإذا كانت حوادث الرواية تجرى فى البحار أو على الشطئان فعلى القاص أن يهيىء لنا الجو حتى ليجعلنا نشم رائحة البحر من بين السطور . وإذا كانت الحوادث تجرى فى الطبقة الراقية فليرفعنا إلى هؤلاء السادة ، وليجعلنا نتمتع بالعيش معهم ونندمج فيهم . وإذا كانت الرواية تجرى فى حى فقير فليصف لنا الحى حتى لكأننا نراه ونعيش فيه .

إن الرواية الجيدة ليست الرواية التى تجعلنا نقف فى أثناء قراءتها لنقول : « هنا قاص يقص » ، بل الرواية الجيدة هى التى تستولى علينا وتجعلنا لا نفكر إلا فيما تروى وتنقلنا من عالمنا إلى عالمها ، فإذا ما فرغنا من قراءتها قلنا : « هنا الحياة » .

٢ ــ الشخصيات الحية :

هذه هى الخاصة الثانية من الخواص الضرورية للرواية الناجحة ، فالحبكة وحدها لا تكفى لإبراز رواية جيدة بل لا بد للرواية من أن تنبض فيها الحياة ، فكلما كانت الشخصيات حية ، فعلى قدر الحياة التى فى شخوص الرواية يكون النجاح .

قد حسب بعض قصاصنا أن الفكرة هى كل شىء ، فراحوا يتفننون فى إبرازها دون الالتفات إلى الشخصيات وإبرازها حية ناسين أن إهمال الشخصيات يجعل عملهم شيئا آخر غير الرواية على أى حال . فالرواية لا تصبح رواية إلا إذا نبضت شخصياتها بالحياة .

ولو كانت الرواية تقاس بحبكتها وموضوعها لكانت جميع الحوادث الرائعة

التى تسردها الجرائد كل يوم متفننة فى عرضها روايات فنية ؛ ولكنها ليست كذلك ، ولن تكون كذلك لأن عنصر الحياة الذى بدونه لا تكون رواية ينقصها .

وهناك روايات مضبوطة الحبكة مسبوكة البناء ، ولكنها بالرغم من ذلك لا تبلغ فى قيمتها الفنية روايات أخرى غير متماسكة لا لشىء إلا لأن الثانية فاقتها بما تزخر به من حياة .

وعلى هذا القياس فروايات المخاطرة لا تبلغ روايات الشخصيات فى القيم الفنية ، فما أيسر رواية حوادث مثيرة كثيرة ، وما أصعب خلق شخصية حية أو شخصيات .

إن القاص الناجح هو الذى يخلق لنا أناسا خالدين لا ننساهم بل تظل صورهم عالقة فى أذهاننا دواما . إن من مميزات الشخصية الروائية الحية أنها تبقى ، بينا تندثر شخصيات عظيمة كانت تدب فى الحياة وتصبح نسيا منسيا .

قد يظن البعض أن الشخصية العظيمة الحية لا بد وأن تكون من الشخصيات المبرزة فى الحياة ، ولكن هذا الظن خاطئ لا نصيب له من الصواب ؛ فالشخصية العظيمة الحية هى الشخصية التى ينجح القاص فى أن يهبها الحياة سواء أكانت شخصية ملك عظيم الفعال أم شخصية فقير بالى الثياب ، وإن العبرة كل العبرة بمقدار ما تزخر به من حياة .

(ا) الحياة الخارجية والداخلية للأبطال :

قلنا إنه لا رواية بلا حياة ، فكيف يهب القاص لمخلوقاته الحياة ؟ هناك طريقتان لخلق شخوص الرواية : الأولى أن يرسم القاص الخطوط الخارجية للشخصية حتى تظهر وتبرز ملامحها ، وهذه تحتاج إلى دقة فى الملاحظة وبراعة فى الوصف حتى تتجسم الشخصية فى مخيلتنا . وعمل القاص هنا أن

يصف الشخصية وصفا دقيقا ، فيذكر طولها وعرض الكتفين ولون الشعر والعينين ووصف الأنف والفم والجبين والمشية واللفتة والثياب ... إلى أن تصبح الصورة واضحة أمام عيوننا وكأننا نراها على الستار الفضى فى وضع مكبر مقرب واضحة الملامح والتقاسيم .

وتتطلب هذه الطريقة من القاص سرد تفاصيل كثيرة ، وله مطلق الحرية فى أن يسرد جميع التفاصيل التى تحلو له . وليس لنا أن نضيق بما يسرد حتى لو ذكر لنا عدد أزرار السترة ، ما دام ما يسرده لنا نابضا للحياة .

كانت هذه الطريقة طريقة إبراز الشخوص بالوصف الخارجى هى الطريقة التى يتبعها الروائيون قديما ، فكنا نعرف شكل الشخصية المرسومة والحركات التى تأتيها ، ولكننا ما كنا لنعرف ما تفكر فيه الشخصية أو ما يدور بداخلها من أحاسيس . ولكن كتابا آخرين — وأغلبهم محدثون — جنحوا إلى التعمق ، فراحوا يتغلغلون فى نفوس أبطالهم ويعرضون علينا ما تهمس به نفوسهم وما يعتمل فى صدورهم وما يدور فى عقولهم ، فأصبحت رواياتهم تعتمد على التحليل النفسى كل الاعتماد . وإن صياغة مثل هذه الروايات يحتاج إلى مهارة فنية وقوة بصيرة من القاص ، كما أن على القارئ أن يكون على استعداد لتحمل قدر من المشقة والجهد ، وهى مشقة لذيذة وجهد محبب .

وقد حاول بعض القصاص أن يعبر عن حالة الشخصية النفسية لا بوصف ما تحس به ، بل بإتيان حركة خارجية تدل بشكل واضح على الواغز النفسى لإتيانها . هذه الطريقة تستلزم أن يكون الروائى موهوبا فى هذه الناحية ، كما أنها تتطلب من القارئ انتباها وحسن تأويل .

وتخصص بعض هؤلاء الروائيين فى تسجيل ما يعتمل فى العقل الظاهر ، وروايات هؤلاء غالبا ما يقرؤها جمهرة القراء ويعجبون بها . وتخصص البعض الآخر فى تسجيل ما يدور فى العقل الباطن ، ومثل هذه الروايات تغرق فى

التحليل ويقرؤها الكتاب أكثر مما يقرؤها القراء عادة .

٣ ــ الأسلوب :

القاص البارع ساحر لأنه يضع أمام عيون أخيلتنا حوادث وأناسا حية تعيش أكثر مما يعيش أكثر الناس شهرة . وقد يعود جزء من سحره إلى الأشخاص والحوادث التى يرويها ، ولكن أهم ما فيه هو قدرته على جذبنا معه بما ينضد من ألفاظ ويركب من تراكيب تجذبنا فى يسر حتى نندمج فى جو روايته . هذه القدرة هى ما يعرف بالأسلوب .

والأسلوب هو الخاصة الثالثة للرواية ، فإذا كان الأسلوب رديئا فقدت الرواية ركنا هاما من أركانها . وقد فهم بعض الكتاب أن الأسلوب الجيد هو الأسلوب الضخم ذو الاستعارات الكثيرة والكنايات العديدة والمحسنات اللفظية والإغراق فى الغرابة أحيانا ، فراحوا يبحثون فى بطون المعاجم عن الألفاظ الغريبة ليرصعوا بها أسلوبهم ، فجاء أسلوبا ضخما فخما ولكنه للأسف ليس بأسلوب روائى ولا بأسلوب شخصى . فما هو الأسلوب الروائى ، وما هو الأسلوب الشخصى ؟

الأسلوب الروائى : هو الطريقة الخاصة التى يسرد بها المؤلف روايته ، فكما أنه لا يوجد اثنان فى الحياة يتكلمان أو يتحركان بطريقة واحدة متشابهة من كل الوجوه ، فكذلك لا يوجد كاتبان لهما أسلوب واحد تماما . والأسلوب الروائى الجيد هو الأسلوب الذى يتفق وطبيعة الكاتب ويتلاءم والموضوع الذى يعالجه . فإذا كان الكاتب ساخرا جاء أسلوبه ساخرا ، وإذا كانت روحه شاعرية فليكن ما يكتبه شاعريا ، وإذا كانت روحه حزينة فلا يحاول كتابة الفكاهة ، فالفشل فى ركابه ما دامت الفكاهة لا تجرى فى دمه ، وهكذا .

وينبغى أن يكون الأسلوب الروائى صادقا مراعيا لمقتضيات الأحوال ، فإذا ما تحدث الروائى عن شخص جاهل فلا يجوز له أن يجرى على لسانه العلم والعرفان . وإذا ما حاول معالجة شخصية بسيطة فينبغى أن يكون أسلوبه بسيطا فى التراكيب والبناء . أما إذا حاول معالجة شخصية مركبة فمن الواجب أن يكون الأسلوب محكم الصياغة ولا ضرر فى أن يكون مركزا .

الأسلوب الشخصى : هو الأسلوب الذى يكونه الكاتب لنفسه لا يقلد فيه أسلوب كاتب سواه ؛ وهناك كتاب نجحوا فى تكوين أسلوب علما عليهم يعرفون به حتى لو لم يذكر اسمهم معه ، وهذا أقصى ما يطمح إليه كاتب . ولكن الغالبية العظمى من الكتاب عندنا يعيشون على أساليب من سبقهم من الكتاب عاملين بالقاعدة الخاطئة التى تلقوها فى المدارس : « كل ما تحفظ فهو ملك لك » وهذا خطل عظيم . فهل يجوز لكاتب يعيش على موائد الجاحظ مثلا أن يدعى أن الأسلوب الذى يكتبه أسلوبه الشخصى ؟ وهل يجوز لذلك الذى يقتبس أسلوب القرآن أن يتبجح ويدعى أنه يكتب بأسلوبه هو ؟ وهل يعتبر مثل هذا الكاتب كاتبا أصيلا ؟ بالطبع لا . فما هو بكاتب أصيل بل هو ترجيع وصدى لكاتب أو كتاب .

آفاق الرواية :

آفاق الرواية واسعة ، بل لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن الرواية أوسع الفنون والأدب آفاقا ، فهى تتسع لكل الفنون والعلوم والآداب وتؤدى أغراضها وإن كان أداء متواضعا أحيانا . فهى تتسع لأغراض الشعر من وصف وغزل ورثاء .. إلخ . كما تتسع للفلسفة والجدل والمنطق والحوار ، وهى معرض حسن لعرض المذاهب الاجتماعية المتباينة والآراء المتضاربة ، وقد أصبحت حديثا دعامة من دعائم علم النفس التحليلى . وقد يرسم الروائى ـــ بالوصف

الجيد ـ لوحات أخاذة فيؤدى باللفظ ما يؤديه الرسام بالألوان .

الفكاهة والرواية :

الحياة لا تخلو من فكاهة فهى لا تنطلق جامدة بلا مرح . ولما كانت الرواية مرآة تعكس الحياة فلتعكس المرح فيما تعكس ؛ فالفكاهة من العوامل التى تساعد على بعث الحياة فى الرواية وتجعلها تنطلق فى يسر وجو بهيج .

ولكن ليس معنى هذا أن الرواية الخالية من الفكاهة لا تنطلق فى يسر ، فهناك روايات خالدات لا أثر للفكاهة فيها ، و لم يقلل هذا من قيمتها الفنية و لم يجعلنا نقف ونحن نقرؤها لنتساءل أين الفكاهة هنا ؟ وعلى ذلك فالفكاهة ليست من مقومات الرواية ، ومرد ذلك إلى الروائى نفسه فإن شاء استعملها وإن شاء هجرها .

هناك كتاب لا يستطيعون كتابة فصل واحد دون أن يسخروا من أنفسهم أو من أبطال قصصهم ، وهناك كتاب يكتبون كتابا ضخما دون أن تقابل ملحة واحدة أو سخرية واحدة ؛ فالمسألة استعداد الكاتب قبل كل شيء .

وهناك روايات يطلق عليها اسم الروايات المضحكة ولا هدف لها إلا إضحاكنا وإدخال السرور علينا . وكلما أغرقنا فى الضحك فى أثناء قراءتها أغرق المؤلف فى النجاح . ولا يطلب من مؤلفى مثل هذه الروايات التقيد بالقيود الفنية ، وغالبا ما يجنحون إلى البعد عن الحقيقة وإتيان أشياء لا تتفق ومنطق الخيال أو الحياة ، وكل ذلك مغفور لهم ما داموا يؤدون غرضهم الأول وهو إضحاك قرائهم وجلب السرور إلى نفوسهم . وإن قيمة هذه الروايات من الوجهة الفنية محدودة ، ولكن إذا كان الإضحاك يعتمد على ملابسات الأحوال وعلى شخصيات مرسومة رسما حيا فإن قيمتها تصبح قيمة فنية عالية .

مرونة الروائى والرواية :

الروائى طليق عندما يكتب روايته ، فهو حر فى أن يكتبها فصولا قليلة طويلة أو أن يكتبها فصولا عديدة قصيرة . فهناك كتاب تتكون روايتهم من عدد قليل من الفصول الطوال، وهناك تولستوى مثلا تتكون روايته من فصول قصيرة كثيرة. وإذا أعجب كاتب بفصل من روايته وأحس نشوة فى الانطلاق فيه فليكتب كما يحلو له، وليجعله طويلا كما يحب فليس هناك من قيود تقيده.

الرواية حرة فى طولها ، فعلى الرغم من أن الروايات الحديثة يتراوح عدد كلماتها غالبا بين ٧٠٠٠٠ ، ٨٠٠٠٠ كلمة بينما كانت الرواية قديما تبلغ ثلاثة أضعاف هذا العدد ، إلا أن هناك روايات حديثة تجاوزت هذا القدر بكثير ، فرواية Point Counterpoint لألدس هاكسلى أطول جدا من هذا القدر . وهناك رواية جلزويرذى Forsyte Saga التى تتحرك فى بطء فى كتب متتابعة ، قاصة تاريخ عائلة خلال أجيال هى أول رواية عصرية إنجليزية ولا شك .

وليست الرواية حرة فى طولها فقط بل هى حرة فى طريقة سردها ، فللروائى أن يسرد روايته كما يحلو له دون أن يقيده قيد ، على نقيض المسرحية فهى محكومة بالحوار والمنولوجات . ففى المسرحية قد يختلف عدد الفصول ولكن لن تختلف الأداة أبدا ، فلا تروى المسرحية إلا عن طريق واحد هو الحوار بين الشخوص بينا يستطيع المؤلف فى الرواية أن يستعمل الوصف أو الحوار ، أو الوصف والحوار معا . وزيادة على ذلك فإن الكاتب المسرحى لا يستطيع أن يقحم نفسه ليشرح ملاحظاته على شخوص مسرحيته أو ليدلى برأيه الشخصى ، فى حين أن للروائى كل الحق فى أن يفعل هذا .

إن أبسط طريقة لسرد رواية هى أن يأخذ الروائى فى قص روايته بينا يستمع

القارئ . وإن رواية جزيرة الكنز لاستيفنسن لأحسن مثل للرواية المسرودة ، فإن جيم أحد أبطال الرواية يأخذ فى قص ما حدث فيرى القارئ الحوادث من زاوية واحدة ووجهة نظر واحدة .

وهناك طرق أخرى لسرد الرواية أكثر تعقيدا ، فقد يلجأ الروائى إلى محاكاة الحياة فيجعل السرد مسرحيا ، أى يجعله حوارا مباشرا . ثم يستفيد بما لا يستفيد منه الكاتب المسرحى فيأخذ فى التعليق على الشخصيات وأفعالها بين لحظة وأخرى . ففى اجتماع ما مثلا يأخذ الأشخاص فى التحدث فنعلم منهم علاقة بعضهم ببعض ، وبعض صفاتهم . وهنا يقف عمل الكاتب المسرحى ، أما الروائى فيستطيع أن يفسر بعد ذلك الحوار الدائر والشخوص المشتركة فيه ، وقد يقحم أشخاصا غير مشتركة فيه ولا علاقة لهم به . وهناك مئات من الطرق الأخرى لسرد الرواية .

التفرقة بين الرواية والموضوع :

قلنا إن الرواية تتسع لكل الفنون والآداب ، ونحب أن نقول شيئا عن الرواية التى تتعرض للتاريخ أو لعرض مذهب اجتماعى أو اقتصادى أو فلسفى مثلا . فإننا فى أغلب الأحايين نعجب بالسرد التاريخى أو بالمذهب الاقتصادى أو الاجتماعى أو الفلسفى ، فلا يسعنا إلا نهتف معجبين : يالها من رواية وياله من روائى ! دون أن نميز بين الرواية والموضوع الذى تعالجه . وعلى الرغم من أن بناء الرواية ردىء ومن أنها بعيدة عن مقاييس الرواية الصحيحة يستمر إعجابنا بها كرواية ، وفى هذا خطأ بالغ . فمن الواجب أن نفرق بين الرواية الجيدة والموضوع الجيد ، وعلينا أن نعجب بالرواية التى تسير على قواعد الرواية السليمة مهما كان الموضوع الذى تعالجه ، وينبغى ألا ندع الموضوع يبهرنا ويجعلنا نخبط فى حكمنا . فإذا كانت الرواية جيدة البناء ومستوفية الشروط الصحيحة فلنا أن نهتف يالها من رواية وياله من روائى ! أما إذا كانت

الرواية رديئة البناء بعيدة عن المواصفات اللازمة للرواية وجيدة الموضوع ، فلنا كل الحق فى أن نصيح ياله من تاريخ وياله من مبدأ أو ياله من مؤرخ أو ياله من مصلح أو ياله من فيلسوف !

الواقعية والرواية :

كان القاص فى عصور الأشراف والفرسان يختار بطل روايته من طبقة الملوك أو الأشراف أو القواد أو الفرسان ، ثم يضفى على بطل روايته صفات البطولة والإقدام والشرف والنبل والعفة والترفع والرحمة وجميع الصفات الطيبة . فكان البطل يبرز فى صورة بعيدة عما نألفه من صور الإنسان ، فما كان يتصف بصفة من صفات الضعف البشرى ، وما كان يأتى من الأفعال إلا كل نبيل ، ولا ينطق إلا بكل عفيف ظريف . وكان من ألزم صفاته الكمال فى كل شيء ، فكان أقرب إلى الملائكة منه إلى الإنسان الذى يصيب حينا ويخطئ أحيانا . وكان القاص يسرد مواقف بطله الخارقة ويبرز عواطفة العنيفة الثائرة ، فكان طابع الرواية روعة فى الحوادث ومبالغة فى شخصية البطل وجموحا وشططا ، وعلى ذلك كانت الرواية تروى الشاذ من الأفعال وتبرز الغريب من الأشخاص .

ومرت الأيام وتكونت طبقة متوسطة أخذت تعمل فى كل ميدان فحولت الأنظار إليها واهتم الناس بها ، فراح القصاص يصورون حياة هذه الطبقة الجديدة ويصورون ما يقع تحت أعينهم ، فجاءت روايتهم تروى مألوف الحياة وتعبر عن الحياة العادية التى تقع كل يوم وتبرز الأشخاص العاديين الذين نقابلهم فى حياتنا ونعرفهم ويعرفوننا ، فلا روعة فى الحوادث ولا شذوذ فى الأشخاص ، فكانت قصصا عاديا عن الإنسان العادى الحقيقى لا غرابة فيه ولا شذوذ .

إن الرواية الواقعية ليست نقل الحياة كما هى فى فوضى واضطراب ، بل على

القاص الواقعى أن يروى الواقع فى ترتيب وتسلسل ونظام ، ولا يضيره أن يقدم فى الحوادث أو يؤخر أو يطيل أو يهذب أو يحذف ، ما دام نتيجة ذلك انتظام عقد الحوادث وتسلسلها التسلسل المنطقى .

إن عمل القاص الواقعى هو أن يبرز الحوادث التى تقع أمام أعيننا كل يوم فى ثوب جذاب ، وأن يفسرها لنا ويوضحها حتى ليجعلنا نخال أننا نراها لأول مرة ، جديدة مزهوة .

٢ ــ الأقصــوصة

نشأتها :

يخيل إلىّ أن الإنسان قاص بطبعه ، فما تخيلت جماعة من البشر مجتمعين إلا رأيت أحدهم يقص والباقين مصغين إليه ، فإن رغبة سرد الحكايات والإنصات إليها صفة من الصفات الموروثة فى الإنسان . وعلى ذلك فالأقصوصة من أقدم أنواع الأدب إن لم تكن أقدمها جميعا ، ومن المحتمل أن أول ظهورها فى العصور المتناهية فى القدم كان حول النار التى شبها الصيادون فى الليل ليجلسوا حولها فيأخذ كل منهم يقص ــ دون وعى فنى أو تزويق خيالى ــ ما فعله فى يومه .

وترجع أول أقاصيص مدونة عثر عليها إلى ٦٠٠٠ سنة تقريبا فقد عُثر على ورق بردى مسجل به أقاصيص فرعونية أغلبها أسطورية ، وقد ترجمت هذه الأقاصيص إلى اللغات المتباينة وقد نقلت إلى العربية حديثا . وبعد الفراعنة أنشأ شعراء اليونان والرومان ملاحم تروى فعال آلهتهم وأبطالهم الباهرة فى ثوب قصصى ، وكان للهنود القدماء حكاياتهم الخرافية ، وبرع الفرس القدامى فى الأساطير والقصص المروى على ألسنة الحيوانات ، ودون الشرق

أقاصيصه فى ألف ليلة وليلة .

ولم تعرف الأقصوصة هذه الشعوب فحسب بل وردت فى جميع الكتب الدينية ، ففى التوراة والإنجيل والقرآن أقاصيص أخاذة بلغ بعضها درجة فنية عالية .

انتشرت الأقصوصة انتشارا هائلا وتنوعت تنوعا عظيما فى خلال الخمسين سنة الأخيرة ، وقد كان انتشارها وتنوعها فى هذه الحقبة الصغيرة أعظم من انتشارها طوال القرون الخمسة السابقة . ويرجع بعض هذا الانتشار المفاجئ إلى التقدم الذى تقدمته الرواية عموما ، فقد أقبل الناس على القراءة أخيرا إقبالا شديدا أغرى عقولا كثيرة وأقلاما أكثر على النشاط وكتابة روايات فنية فاكتشفت مائة طريقة وطريقة جديدة لكتابة وسرد الرواية ، وقد أصبحت هذه الثروة الجديدة من ميراث كاتب الأقصوصة .

الأقصوصة قبل القرن التاسع عشر :

لم تكن الأقصوصة فى القرن الثامن عشر من أنواع الكتابة المعروفة للكتاب ، فإنها لم تكن فنا واعيا قبل نهاية القرن التاسع عشر . فإذا وجدنا أقصوصة قبل ذلك فليس معنى هذا أنها كانت معروفة ، بل معنى ذلك أنها جاءت عفو الخاطر وعن غير قصد ، فما حاول كاتبها أن يضعها فى قالب أقصوصة قبل أن يكتب ولكنه كان يحاول أن يكتب نادرة من النوادر فجاءت أطول مما كان يقدر ، أو أنه كان يحاول كتابة رواية كاملة فجاءت أقصر مما كان يظن . وقبل أن تتخذ الأقصوصة شكلها الخاص بها المميز لها ، كان من المألوف أن نجد مجموعة أقاصيص مرتبطة بعضها ببعض لتؤلف رواية كاملة .

الأقصوصة فى القرن التاسع عشر :

كان ينظر إلى الأقصوصة فى أوائل القرن التاسع عشر على أنها رواية مختصرة ، فهى فى نظر الكتاب شىء يعبثون به عندما لا يجدون الوقت الكافى لإبراز رواية كاملة مستوفية كل شروط الرواية . ويخيل إلىّ أن هذا هو الحادث الآن عندنا ، فأغلب قصاصى المجلات لا يكتبون أقاصيص فنية مستوفية لشروط الأقصوصة بل يكتبون روايات مختصرة . وسنتكلم عن ذلك عند التكلم عن شكل الأقصوصة والفرق بينها وبين الرواية .

وفى نهاية القرن التاسع عشر فطن بعض الروائيين إلى الفرق البين بين سرد الأقصوصة وسرد الرواية الكاملة ، وحبكة الأقصوصة وحبكة الرواية الكاملة ، فكتبوا أقاصيص فنية لها طابع خاص وبناء خاص ، وبذلك أخذت الأقصوصة شكلها وأصبح لها ثوب أدبى مميز .

فضل المجلات على الأقصوصة فى الخارج :

انتشرت المجلات فى خلال الخمسين سنة الأخيرة انتشارا هائلا وقامت بنشر أقاصيص أقبل الناس على قراءتها إقبالا شديدا فأكثرت المجلات منها ، ونشطت الأقلام لكتابة الأقاصيص التى تسد الحاجة الملحة المتزايدة ، فكان من نتيجة ذلك أن جاءت الغالبية العظمى من هذه الأقاصيص آلية الإنتاج ، أو شيئا تافها يموت لساعته ، ولكن لا بأس فى ذلك ما دام الأدب الصحيح من نتاج الأبراج العاجية عادة ، فإن الكتاب الممتازين لا يدفعون إلى الناس إلا ما يرضون هم عنه أولا ، فقد أنتج هؤلاء الممتازون أقاصيص رائعة بجوار تلك الأقاصيص الغثة العديدة .

وإن سومرست موم يرى أن الفضل الأول فى انتشار الأقاصيص يعود إلى المجلات أولا وأخيرا ، فهو يقول : « ما من نوع من أنواع الفنون ينتج

ما لم يكن هناك طلب له ، فلو أن المجلات لم تنشر الأقاصيص لما كانت الأقاصيص تكتب » .

هذا هو أثر المجلات فى الأقصوصة فى إنجلترا وأمريكا ، فما هو أثرها فى مصر ؟

إن المجلات فى مصر حجر عثرة فى سبيل انتشار الأقصوصة الفنية الصحيحة ، فهى لا توسع لها صدرها ولا تأخذ بيدها ، وإذا ما نشرت أقصوصة فيشترط فيها أن تكون ذات مستوى خاص يرضى جمهرة قرائها ، وإذا علمنا أن جمهرة قراء مجلاتنا لم يتكون ذوقهم الفنى بعد ، فإن جناية المجلات بما تقدم من أقاصيص بعيدة عن الأقاصيص الفنية بعد السماء عن الأرض جناية مزدوجة ، فهى تجنى أولا على ذوق القارئ الذى يعتمد عليها فقط فى تكوين ذوقه الفنى ، فتجعله يعتقد ألا أقصوصة إلا ما يقرأ — على الرغم من أن أغلب ما يقرأ ليس بأقصوصة — وتعوق مسايرتنا للأدب العالمى ثانية ، وتجعلنا متخلفين عنه دواما ، ولولا بعض نفر من قصاصنا المخلصين لفنهم ، الذين يخرجون مجاميع قصصية من وقت لآخر لما كان عندنا أقاصيص بمعناها الصحيح .

ما هى الأقصوصة الصحيحة ؟:

عرفت الأقصوصة الصحيحة بأنها صورة مرسومة بالألفاظ . وقال سومرست موم : « إن الأقصوصة الحسنة جزء من رواية تتعلق بحادثة واحدة حية أو روحية ، ويمكن قراءتها فى جلسة واحدة على أن تهزنا وتترك فينا أثرا ، ويجب أن يكون لها وحدة أثر أو تأثير وأن تتحرك فى خط واحد من بدايتها إلى ختامها » . هذا هو تعريف الأقصوصة فتعالوا نطبقه على ما نقرأ عندنا ؛ إن أغلب الأقاصيص العربية لا تروى جزءا من رواية بل تروى رواية كاملة ،

ولا تكتفى بحادثة واحدة بل تروى حوادث حسية متباعدة لا وحدة فيها ، كما أنها لا تتحرك فى خط واحد من بدايتها إلى ختامها . فلم يبق لها من صفات الأقصوصة إلا أنها تقرأ فى جلسة واحدة !

الشروط الواجب توافرها فى الأقصوصة :

حاول النقاد أخيرا أن يضعوا للأقصوصة شروطا ينبغى توافرها فيها كتلك الشروط التى وضعت للرواية ، والتى لا تصبح الرواية فنية إلا إذا استوفتها .

للأقصوصة مطلق الحرية فى أن تبدأ أينما تبدأ وأن تنتهى حيث لا نهاية ، بعكس الرواية التى ينبغى أن تكون لها بداية وختام . وعند تشيكوف « الأقصوصة هى ما لا نهاية لها ولا بداية » . ولكن هذه النظرية لا يمكن تطبيقها على أقاصيص كثيرة جيدة كأقاصيص كبلنج . وإن الشرط الوحيد الواجب توافره فيها والذى اتفق عليه جميع كتاب الأقصوصة هو وحدة الموضوع وانسجامه ، على ألا تخضع أصلا للحبكة وعلى ألا تروى بالطريقة التى تروى بها الرواية . فعلى كاتب الأقصوصة ألا يذكر تفاصيل موضوعة ـــ بخلاف الروائى ـــ بل عليه أن يهدف مباشرة إلى الحادثة التى يعالجها . وقد قال ألن بو فى ذلك وهو أبو الأقصوصة الحديثة ومنشؤها : « يجب ألا يكون فى الأقصوصة كلمة واحدة لا تقود مباشرة أو غير مباشرة إلى صميم موضوع الأقصوصة » . وعلى الرغم من أنه لا هو ولا من جاء بعده قد اتبع ذلك حرفيا ، إلا أنهم كانوا يضعون هذه القاعدة نصب أعينهم وهم يكتبونها .

الصفات الواجب توافرها فى كاتب الأقصوصة :

ـــ يجب أن يتحلى كاتب الأقصوصة بصفتين :

١ ـــ الصفة الأولى تظهرها كلمات جولزويرذى الآتية بجلاء : « إن الشرط الأساسى فى كاتب الأقصوصة هو قدرته على إمتاع القارىء

والاستحواذ عليه جملة فجملة » .. إن كاتب الأقصوصة — على عكس الروائى — لا يستطيع أن يعتمد على التأثير الإجمالى للفصل بعد الفصل ، لذلك يجب أن تكون كتابته أكثر تشبعا وتركيزا لأنه يخضع خضوعا شديدا لنطاق الأقصوصة .

٢ — الصفة الثانية هى ألاّ يعرض القاص على قرائه ما يراه بعينه كما هو بل ينبغى أن يصوغ ما يراه فى قالب قصصى أخاذ . وفى هذا يقول سومرست موم : « فى رأيى أنه لا يكفى أن يعطيك الكاتب الحقائق البسيطة كما يراها بعينه (هذه الحقائق ليست حقائق بسيطة صحيحة بل حقائق شوهتها غريزته) بل عليه أن يصممها تصميما فنيا وأن يقدمها لك فى قالب فنى » !

أهناك قصص جديد يقص ؟:

قلنا إنى الأقصوصة من أقدم أنواع النشاط الإنسانى وإن كانت الاقصوصة الفنية لم تعرف إلا فى نهاية القرن التاسع عشر ، وعلى ذلك فلم يعد هناك مواضيع جديدة تقص فقد استنفدت الأجيال المتعاقبة الحكايات كلها . لذلك لن نطمع فى أن يأتى قاص أو روائى بجديد فى الموضوع ولكن نطمع فى أن نرى علاجا جديدا دواما .

إن هدف الأدب وصفته اللازمة هى قدرته على أن يعيد ترجمة الحقائق الأزلية على ضوء التجارب الوقتية ، فعلى الرغم من أن الطبيعة البشرية لا تتغير فإن الملابسات فى تغير مستمر .

فالإنسان العادى اليوم يشبه الإنسان العادى الذى سبقه على مر العصور فى أشياء ويختلف فى أشياء . فهو يشبهه فى صفات الإنسان الفطرية الغريزية ويخالفه فى الصفات العقلية المكتسبة من الأحوال الاجتماعية المتغيرة التى تكون بيئته .

صارت الحياة أكثر تعقيدا مما كانت فقد نتج عن الثورة الصناعية مشاكل

اجتماعية واقتصادية ، ووسعت فى نفس الوقت من نشاط الإنسان ونوعيته فأصبح على القاص أن يراعى جميع هذه الملابسات الجديدة عندما يحاول معالجة حادثة حسية أو روحية فى أقصوصته ، وصار من المستحيل أن يسرد الحادثة بعيدا عن هذه المؤثرات جميعها . أضف إلى ذلك أن معلومات الفرد العادى في هذا العصر قد ارتقت عن معلومات الفرد العادى فى العصور السابقة . فهو يعرف الآن جيدا أن الإنسان ليس طيبا كله ولا رديئا كله ، وعلى ذلك فلن يقبل الخطوط السوداء فقط أو البيضاء فقط عند رسم شخصية من الشخصيات ، أى أنه لن يقبل أن تصور له شخصية شريرة كلها أو شخصية خيرة كلها بل لا بد أن تصور له الشخصية كما هى خليط من الخير والشر . .

وقد اهتم كتاب هذا العصر بتحليل الأفعال إلى مجموعة دوافع ، فاهتم القراء بتتبع الدوافع أكثر من اهتمامهم بالفعال نفسها ، ومن هنا طغت موجة التحليل على أدب العصر ودمغته .

طول الأقصوصة :

كان البعض يظن أن الفرق الوحيد بين الرواية والأقصوصة هو طول كل منهما ، فإذا ما طالت القصة أصبحت رواية وإذا ما قصرت صارت أقصوصة . وإن كثيرا من كتاب الأقصوصة عندنا قد وقعوا فى هذا الخطأ فكتبوا الروايات المختصرة وهم يحسبون أنهم يقدمون أقاصيص . وقد وضح فى الأذهان أن من مستلزمات الأقصوصة قصرها ولكن هذا ليس صحيحا ، فليس من الضرورى أن تكون الأقصوصة قصيرة ، فهناك أقصوصة « لفة المسمار The turn of the screw » لهنرى جيمس تبلغ ٤٠ ألف كلمة ، وسبق أن قلنا إن الرواية الحديثة تتراوح بين ٧٠ ألف و ٨٠ ألف كلمة أى أنها تبلغ نصف الرواية الحديثة أو أكثر قليلا . وعلى الرغم من طولها هذا فهى أقصوصة

لأنها عولجت علاج الأقاصيص ، فالعبرة بالعلاج والشكل لا بالطول والقصر .

الفرق بين الأقصوصة والرواية :

١ — للرواية بداية ونهاية ، ولا يفهم من النهاية أنها نهاية الشخصيات التى تحيا فى الرواية بل نهاية الحوادث التى تروى نهاية كاملة ، وإن كانت الشخصيات تبدو أنها تتجدد لتحيا حياة أخرى متجددة — أما الأقصوصة فتبدأ أينما تبدأ وتنتهى حيث لا نهاية ، وقد اشترط لها تشيكوف أن تكون بلا بداية ولا نهاية .

٢ — الرواية مرآة تعكس الحياة بصورة خاصة ؛ بينا الأقصوصة تعالج لمحة من الحياة فى لحظة من اللحظات .

٣ — تروى الرواية أكثر من حادثة واحدة ؛ فى حين أن الأقصوصة لا تروى إلا حادثة واحدة حسية أو روحية .

٤ — لا بد فى الرواية من ذكر التفاصيل الضرورية كلها ، وإن أهملت التفاصيل تبدو الرواية ناقصة مبتورة ؛ أما فى الأقصوصة فينبغى عدم ذكر أية تفاصيل ولا يذكر إلا ما له علاقة وثيقة بصلب الموضوع مباشرة .

٥ — تكمل الشخصية وتتضح فى الرواية وتكون لها صفات عامة واحدة من أول الرواية إلى آخرها ؛ أما فى الأقصوصة فالشخصية لا تكمل أبدا ، وكل ما تقدم الأقصوصة هو عرض ناحية من الشخصية وقد لا تكون هذه الناخية أبرز ناحية فيها .

٦ — لا بد للرواية من حبكة ، وقد تتفاوت هذه الحبكة قوة وضعفا ؛ ولا تخضع الأقصوصة للحبكة فإن شرط الأقصوصة الوحيد هو التناسق ووحدة الموضوع ، ثم لا تعرف بعد ذلك حدودا فى البناء أو الموضوع .

الأقصوصة الفرنسية والأقصوصة الروسية ، أو أقصوصة القرن التاسع عشر وأقصوصة القرن العشرين :

ما من شك فى أن هناك فرقا بينا بين أقصوصة اليوم وأقصوصة القرن التاسع عشر ، وما من شك فى أن كل عصر له طابعه الخاص بغض النظر عن اختلاف الممالك والبلدان . فقد سادت الأقصوصة الفرنسية وانتشرت فى القرن التاسع عشر وراح كتاب العالم ينسجون على منوالها ، وانتشرت الأقصوصة الروسية فى عصرنا وأخذ كتاب الأقصوصة يقتفون أثرها ، فما سبب ذلك ؟ إن السبب واضح ظاهر ، فالأقصوصة لم تعرف فى إنجلترا وأمريكا إلا فى أواخر القرن الثامن عشر ، وكانت تعرف كرواية مختصرة لم يجد المؤلف الوقت الكافى لتفصيلها . وأقبل القرن التاسع عشر وكان عصر الرواية الذهبى ، فاهتم الكتاب العظام بالرواية ، وعلى الرغم من أنهم كتبوا بعض أقاصيص من وقت لآخر إلا أنهم كانوا يميلون إلى اعتبارها تحررا لذيذا من قيود الرواية الصعبة ، وكانوا قليلا ما يشعرون أنهم يقومون بعمل يتلاءم وطبعهم واستعدادهم . وسواء أكان تقصيرهم فى الأقصوصة عن عجز فى صياغتها أو عن عدم ميل إلى كتابتها ، فإن ما كتبوه كان مقيدا بقيود جامدة كأنها قوانين طبيعية صارمة . إلى أن قام دى موباسان فى فرنسا وتحرر من تلك القوانين وحطمها ، وكان دى موباسان يدرك المعنويات إدراكا فنيا ويشعر بالشعور الاجتماعى ، فكتب أقاصيص لها طابع إنسانى خاص وكان يحافظ فيها على الجمال الفنى ، فترجمت أقاصيصه فكان تأثيرها بالغا فى كتّاب الأقصوصة فى العالم أجمع ، فصارت قبلة كل كاتب ينشد التطلع إلى وجه الحياة .

ساد الأدب الفرنسى وراح كتاب الأقصوصة ينشدون الكمال الفنى وإن كان لا يتفق وحقيقة الحال فى الحياة ، وتبدلت الدنيا وظهرت الأزمات الحادة

فصارت الحياة بغيضة غير مرضية سادها البؤس والكآبة والكساد والتشاؤم اللاشعورى ، وكانت روسيا منسرحا هائلا للبؤس والكآبة والكساد فصور تشيكوف ما يلمس تصويرا صادقا لا تمويه فيه ، فخلق جيلا يؤمن بالواقع ولا يؤمن بالكمال الصادق بالنسبة للفن الكاذب بالنسبة للحياة .

كان هم تشيكوف الأول تصوير الحركة الداخلية لأفكار الإنسان وشعوره وقد نجح فى هذا نجاحا أغرى كتاب الجيل على محاكاته ، وبفضل تشيكوف وأتباعه من الروس دمغت أقاصيص عصرنا بالطابع الروسى .

الأقصوصة فن ديمقراطى :

عصرنا الحالى هو عصر الأقصوصة الذهبى بلا نزاع ، وقد كان لانتشار الجرائد وتنوع المجلات واتساع نطاق التعليم العام الذى زاد من حب الاستطلاع فى الناس أجمل الأثر فى تقدمها . زيادة على ذلك فإن الحياة الجديدة بسرعتها وتنافسها جعلت هذا النوع من الكتابة أكثر أنواع الأدب ديمقراطية ، فهو يقدم لقرائه القصص المتباينة والأجواء الفاتنة والشخصيات العديدة المتنوعة على اختلاف فى المستوى والنهج ، فيجد كل فيه بغيته وما يرضيه . وإن قصرها جعلها تتناسب ودنيا الجلبة وعصر السرعة الذى تحيا فيه ، فهى تقدم أشياء مختصرة مركزة واضحة . وهى النوع الوحيد من الكتابة الذى يفهمه أى قارئ مهما كان مستواه فى يسر ، فهى أدب الشعب بلا مراء .

مؤلفات الأستاذ عبد الحميد جودة السحار

ـ أحمس بطل الاستقلال
ـ أبو ذر الغفارى   ترجم إلى الاندونيسية
ـ بلال مؤذن الرسول
ـ فى الوظيفة   (مجموعة أقاصيص)
ـ سعد بن أبى وقاص
ـ همزات الشياطين   (مجموعة أقاصيص)
ـ أبناء أبى بكر الصديق
ـ فى قافلة الزمان   (رواية)
ـ أميرة قرطبة   (قصة)
ـ النقاب الأزرق   (قصة)
ـ المسيح عيسى بن مريم
ـ أهل بيت النبى
ـ محمد رسول الله

تأليف : مولاى محمد على
ترجمة بالاشتراك مع مصطفى فهمى

ـ قصص من الكتب المقدسة   (مجموعة أقاصيص)
ـ صدى السنين   (مجموعة أقاصيص)
ترجمت إلى الاندونيسية

ـ حياة الحسين

ـــ الشارع الجديد (رواية)
ـــ وكان مساء (قصة)
ـــ أذرع وسيقان (قصة)
ـــ المستنقع (قصة)
ـــ ليلة عاصفة (مجموعة أقاصيص)
ـــ الحصاد (رواية)
ـــ جسر الشيطان (قصة)
ـــ النصف الآخر (قصة)
ـــ السهول البيض (رواية)
ـــ أم العروسة (قصة)
ـــ قلعة الأبطال (قصة)
ـــ وعد الله وإسرائيل
ـــ عمر بن عبد العزيز
ـــ هذه حياتى
ـــ الحفيد
ـــ ذكريات سينمائية
ـــ كشك الموسيقى
ـــ خفقات قلب
ـــ صور وذكريات
ـــ الإسراء والمعراج
ـــ القصة من خلال تجاربى الذاتية
ـــ عدو البشر
ـــ أبطال الجزيرة الخضراء
ـــ التمر

- الله اكبر
- ثلاثة رجال فى حياتها
- مسجد الرسول
- فات الميعاد
- آدم إلى الأبد
- العرب فى أوربا
- الدستور من القرآن العظيم

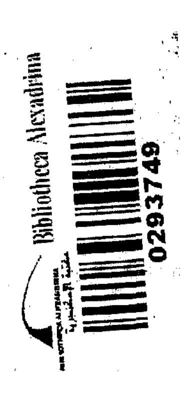
السيرة النبوية فى ٢٠ جزءًا

١ ـــ إبراهيم أبو الأنبياء
٢ ـــ هاجر المصرية أم العرب
٣ ـــ بنو إسماعيل
٤ ـــ العدنانيون
٥ ـــ قريش
٦ ـــ مولد الرسول
٧ ـــ اليتم
٨ ـــ خديجة بنت خويلد
٩ ـــ دعوة إبراهيم
١٠ ـــ عام الحزن
١١ ـــ الهجرة
١٢ ـــ غزوة بدر
١٣ ـــ غزوة أحد
١٤ ـــ غزوة الخندق
١٥ ـــ صلح الحديبية
١٦ ـــ فتح مكة
١٧ ـــ غزوة تبوك
١٨ ـــ عام الوفود
١٩ ـــ حجة الوداع
٢٠ ـــ وفاة الرسول

رقم الإيداع ٣٩٧٢ / ٧٧
الترقيم الدولى ٣ ـــ ١٦٣ ـــ ٣١٦ ـــ ٩٧٧



مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه